

محمود سبلي

حياة آدم

قصة آدم
من القرآن

محمود شلبي

حياة آدم

دار الحديث

بيروت

جميع الحقوق محفوظة
لـ (دار الجيل)

الطبعة الثامنة

١٤١٢ هـ — ١٩٩٢ م

الاهداء

• يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا
أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ

(فرآن کریم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وبعد : فإن هذه سلسلة ذهبية ، يدور موضوعها في سرد حياة الرسل والأنبياء ، في أسلوب سهل ممتنع ، ونمط أخاذ جذاب ، وطريقة فيها قوة الحق ، وصفاء الصدق ، ونقاء الطهر ، ولذة التقرب إلى الله ، وجمال مصاحبة المرسلين والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

وقد أوحى إلى أن أقوم بهذا العمل ، أنه كان يدور في صدرى منذ حين ، وكنت أؤجله حتى أتم في نفسى أدوات الموضوع . حتى كان الوقت المعلوم . فبدأت أفكر في سرد قصص الأنبياء على الناس . ثم راودنى خاطر ألقائي في حيرة . هل أضع هذا القصص في أسلوب يناسب الأطفال أم في أسلوب يناسب الكبار ؟ . هل أجعله قصصا للأطفال أم قصصا للجميع ، صغارا وكبارا ، نساء ورجالا .

وبدء الأمر يتجمع في رأسى ، وبدأت أفكارى تذهب المذاهب ، وكانت تعود إلى تحمل اتجاهات مضطربة متضادة ، فازداد حيرة على حيرة .

وكان أشد الأفكار إحداثا لهذا الاضطراب هو على أى طريقة أسير ؟ فى طول مُمل أو فى قصر مُخل ؟ . فى أسلوب التمثيلية أو فى أسلوب القصة ؟ . فى أسلوب السينما أو فى أسلوب الإذاعة ؟ . فى أسلوب الوعظ أو فى أسلوب العلم ؟ . ولم أستطع أن أفاضل بين أى من هذه الأساليب ، فلكل منها رواده ومزايده . إذا ما أخرج ؟ . وشرعت أكتب نماذج لكل أسلوب ، فيزيدنى الأمر حيرة ، عندما أجد أن فى هذا من الجمال ما فى هذا أو يزيد . وأخيرا ، وبعد جهد شاق ، وتجارب عقلية مريرة استقر رأي أن أسلك به هذه الطريقة ، التى كان عليها هذا الكتاب ، والتى أنوى . إن شاء الله . أن تكون عليها سائر السلسلة .

وهذه الطريقة تجمع من العلم صدقه، ومن النصوص جلالها، ومن القصة طريقته، ومن السينما مشاهدتها المتتابعة، ومن الإذاعة تصويرها، ومن التمثيل ما يذكر فيه من محاورات. وبذلك جهدي أن يكون شيئاً لا يعلو على العوام ولا يهبط بالخواص ولكن بين بين.

ولما كان الأمر يتعلق بوحى السماء، وأن الكذب على الله وعلى رسوله هو أقبح أنواع الإجرام، ويعرض فاعله لأشد العذاب. لذلك لم أشأ أن أقدم بين يدي الله ورسوله رأيي، وجعلت كلمة الله هي العليا، هي المرجع الأول، ثم كلمة رسوله من بعد ذلك، ثم آراء أئمة هذا الدين، ثم في الذيل من بعد ذلك رأيي، إن كان يصح أن يذكر، إلى جوار النصوص المكرمة، وآراء الأئمة الأعلام.

ولتجدن في هذا الكتاب قصة «آدم وحواء»، قصة «أبو الخلق»، و«أبو البشر»، مفصلة تفصيلاً، تسعى إليك في صدق وصفاء. وإن تجد فيها أثراً للأكاذيب التي ألصقت بقصص الأنبياء والرسل كذباً وزوراً. ولا تعمقاً بما أودى بكثير منا إلى مهاوى الشطط والبهمة عن جمال الظاهر الذي أمرنا أن نحكم به دائماً. ولا جدلاً مضلاً عما تعود الكثير أن يصولوا ويقولوا ويجولوا فيه. ولكن تجد فيه نور الحق ويقين الصدق، وجمال الكمال، وكمال الجمال. كل أولئك كان من توفيق الله، ومن النور الذي يتلألأ دائماً ويشرق أبداً على كل من اتصل به. نور القرآن العظيم، ونور السنة البيضاء.

وحياة آدم وحواء هي حياة كل ذكر وكل أنثى على السواء. ليست حياتهما الخاصة وحدهما، ولكن حياة الجميع، لأننا جميعاً منهما. من سلاتهما. نحمل خصائصهما. نحمل في تكويننا صفاتهما المادية والروحية. نحن جميعاً أوراق في شجرة الحياة التي أصلها آدم وحواء. نحن جميعاً من سبقوا ومن لحقوا نكوت شجرة واحدة. هي الأدعية، هي البشرية، هي صورة مكررة من آدم وحواء.

من أجل ذلك بدأت بهما هذه السلسلة المباركة. وأرجو أن أتبعها بحياة الأنبياء جميعاً إن شاء الله.

قبل خلق السماوات والأرض

بخمسين ألف سنة

لم يكن هناك أرض . لم يكن هناك سماء . وكان هناك شيء واحد ... هو الماء ..
وكان عرش الرحمن على الماء ، الماء الذي هو أصل كل شيء .
قال تعالى «... وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...» (هود ٧) .
وقال «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَمَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ،
(الأنبياء ٣٠) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «... كَانَ اللَّهُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ
غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ ،
وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...» (البخارى) .
وأول ما خلق الله القلم وقال له : اكتب . فقال : ما أكتب ؟ . قال : اكتب
القدر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

«... إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ
أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ : اكْتُبْ ، فَقَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ ، قَالَ :
اَكْتُبِ الْقَدَرَ ، مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ ، إِلَى الْأَبَدِ ، (الترمذى) .
وقبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة^(١) كتب
مقادير الخلائق ، ومن بينها قدر آدم وقصته وما سيكون من خلقه وحياته
وموته وبعثه . شأنه شأن كل شيء سيكون .

(١) المقصود بالسنة هنا «فترة من الزمن ، لا السنة الشمسية المعهودة .

قال تعالى : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ، (القمر ٤٩) .
أى أنه تعالى قدر مقادير كل شيء قبل أن يخلقه ، وسجل ذلك في أم الكتاب
وما آدم عليه السلام إلا أحد هذه الأشياء .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ
يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ — قَالَ — وَعَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ (مسلم) .

والمراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن
ذلك أزلى لا أول له .

وعن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى ، فَحَاجَّ آدَمُ مُوسَى ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ
الَّذِي أُغْوِيْتَ النَّارَ ، وَأَخْبَرَ جَنَّتَهُمُ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ
الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ ؟
قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَتَلَوْنِي عَلَى أَمْرِ قُدْرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟
(مسلم) .

« فحاج آدم موسى ، أى غلبه بالحجة وظهر عليه بها . ومعنى كلام آدم أنك
يا موسى تعلم أن هذا كتب على قبل أن أخلق ، وقدر على ، فلا بد
من وقوة ، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه
لم تقدر ، فليمتلئ موسى على ذلك ١٩ .

خلق السماوات والأرض

وبعد كتابة القدر بخمسين ألف سنة خلق الله تعالى السماوات والأرض .
من الماء الذي تحت العرش خلق الله السماوات السبع ومن الأرض مثلن .
وكانت السماوات والأرض في البداية قطعة واحدة ثم فصلهما الله .
قال تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ... ، (الأنبياء : ٣٠) .

« كاتارتقا ففتقناهما ، أى كاتتا شيئاً واحداً مُلتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما
ورفع السماء وأقر الأرض . »

وقال : قل آمنسكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين
وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي
من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء
للسمائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض
ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات
في يومين وأوحى في كل سماء أمراً وزينا السماء الدنيا بمصابيح
وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم . ، (فصلت ٩ : ١٢) .

« قل آمنسكم لتكفرون بالذى خلق الأرض ، كيف تكفرون بالله وهو
الذى أوجد الأرض ؟ »

« في يومين ، في وقتين ، المراد باليوم ههنا الوقت مطلقاً .
« وتجعلون له أندادا ، اكفءاء من الملائكة والجن وغيرهم . والحال أنه لا يمكن
أن يكون له سبحانه ند واحد . « ذلك رب العالمين ، ذلك العظيم الشأن الذى . »

فقل ماذكرَ في مدةِ بسيرةِ ، خالقِ جميعِ الموجوداتِ ومُربيها دُونَ الأرضِ
خاصّةً فكيفِ يُتصوّرُ أن يكونَ شئٌ من مخلوقاته ندّاً له عزّاً وجلّاً ؟ .
« وجعل فيها رَوَاسِي » ، وابدع في الأرضِ جِبَالاً وأرْسَالاً وثَبَّتَها على
وجيها .

« من فوقها ، على سَطْحِها .
« وَبَارَكْ فِيهَا » ، وكثر خيرَها ، وقَدَّرَ أن يكثرَ خيرها بأن يكثرَ فيها أنواعُ
النباتاتِ والحيواناتِ .

« وقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا » ، وبين كميّتها وأقدارَها ، وخصَّ كُلَّ إقليمٍ من
الملابسِ والمطاعمِ والنباتاتِ ليسكونَ الناسُ محتاجينَ بعضهم لبعضٍ وهو
مقتضى لعِمارَةِ الأرضِ وانتظامِ أمورِ العالمِ .

« في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » ، في أَرْبَعَةِ أَوْقَاتٍ ، في أَرْبَعَةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
« سِوَا » ، لا نُقْصَانٍ فيها ولا زيادة .

« للسَّائِلِينَ » ، هذا الحصرُ في أَرْبَعَةِ كَائِنٍ للسَّائِلِينَ عن مُدَّةِ خَلْقِ الأرضِ
وَمَا فِيهَا . أو قَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا لِأَجْلِ الطَّالِبِينَ لها المحتاجينَ إليها من المقتاتين .
أو مُستويةً مُهيأةً لِلْمُحْتَاجِينَ .

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » ، قَصَّدَ إِلَيْهَا وتوجَّهَ دُونَ إِرَادَةِ تَأْثِيرٍ فِي غَيْرِهَا ،
ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ .

« وَهِيَ دُخَانٌ » ، يرادُ به مادتها التي مِنْهَا تَرَكَّبَتْ لا الدخانُ الذي يَرْتَفِعُ
مِنَ النَّارِ .

« فَقَالَ لَهُمَا وَالْأَرْضُ اثْنِيئَا » ، بما خلقت فيكُما من المنافعِ . فليس المعنى
على إتيانِ ذاتِهما وإيجادهما بل إتيانِ ما فيهما بما ذُكِرَ بمعنى إظهارِهِ والأمرُ
لِلتَّسْخِيرِ . وذلكَ لِلتَّمْثِيلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ محلاً قُدْرَتِهِ تَعَالَى
يُنْصَرَفُ فِيهِمَا كَيْفَ يَشَاءُ إِيجَاداً وَإِكْلَالاً ذَاتاً وَصِفَةً .

« طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، تَمْثِلاً لِتَحْتَمُ نَافِثِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاسْتِحَالَةً
امْتِنَاعِيهِمَا مِنْ ذَلِكَ لَا لِإِبْثَاتِ الطَّوْعِ وَالنَّكَرِ لِهُمَا .

« قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، مُنْقَادِينَ . تَمْثِلاً لِكَمَالِ تَأْثَرِهِمَا عَنِ الْقُدْرَةِ
الرَّبَّانِيَّةِ وَحُصُولِهِمَا كِتَابُ مَرَايِهِ وَتَصَوُّرِ الْكَوْنِ وَجُودِهِمَا كَمَا هُمَا عَلَيْهِ جَارِيَا
عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ .

« فَتَضَاهَنَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، خَلَقَهُنَّ خَلْقاً إِبْدَاعِيّاً وَأَتَقَنَ
أَمْرَهُنَّ حَسْبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ فِي وَقْتَيْنِ .

« وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، خَلَقَ فِي كُلِّ مِنْهَا مَا اسْتَعَدَّتْ لَهُ
وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنِّيرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ
إِلَّا اللَّهُ . أَوْ أَوْحَى إِلَى أَهْلِ كُلِّ مِنْهَا أَوْامِرَهُ وَكَلَفَهُمْ مَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنَ التَّكْلِيفِ .

« وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، أَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَهِيَ وَإِنْ تَفَاوَتَتْ
فِي الارتفاعِ وَالانخفاضِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ ، أَوْ بَعْضُهَا فِيهَا وَبَعْضُهَا فَوْقَهَا
لَكِنَّا لَكُنْهَافَا كُنْهَافَا تُرَى مُتَلَائِكَةً عَلَيْهَا صَحٌّ كَوْنُ تَزْيِينِهَا بِهَا .

« وَحَفَظْنَا حَفَظاً مِنَ الْآفَاتِ أَوْ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْمُسْتَرْقَةِ لِلْسَّمْعِ .

« ذَلِكَ ، الَّذِي ذَكَرَ بِتَفْصِيلِهِ أَى ذَلِكَ الْمَذْكُورَ ...

« تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، الْبَالِغِ فِي الْقُدْرَةِ وَالْبَالِغِ فِي الْعِلْمِ .

متى خلق آدم ؟

خلق الله الأرض في ستة أيام ، في ستة أوقات متساويات ، في ستة أزمنة ،
لأن يوماً عند ربك غير الأيام المعلومة لنا في هذه الحياة الدنيا . وقد سمي الله القيامة
بما فيها من أزمنة طويلة وأطوار صعبة « يوماً » .

فهو « اليوم الآخر » وهو « يوم القيامة » .

في يوم السبت ، أى فى المدة الأولى ، فى الطور الأول ، خلق الله التربة أى الأرض الخام الأولى .

وفى يوم الأحد ، أى فى الطور الثانى ، خلق الله تعالى الجبال .

وفى يوم الإثنين ، أى فى الطور الثالث ، خلق الله تعالى الشجر ، أى كل ما ينبت على الأرض من الشجر .

وفى يوم الثلاثاء ، أى فى الطور الرابع ، خلق الله تعالى « المسكروه » وهو ما يقوم به المعاش ويصلح به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض .

وفى يوم الأربعاء ، أى فى الطور الخامس ، خلق الله تعالى « النون » أى الحيتان أى الأسماك والحيوانات البحرية .

وفى يوم الخميس ، أى فى الطور السادس ، خلق الله الدواب ، وهو ككل ما يدب على الأرض ، من طير وحيوان .
وهنا كمل خلق الأرض ، بجبالها ، وشجرها ، ومعادنها ، وأسمائها ، وطيرها ، وحيوانها .

وفى يوم الجمعة ، أى فى الطور السابع ، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة خلق الله تعالى آدم عليه السلام .

عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدئ فقال : خلق الله عز وجل الثرىبة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المسكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم

الخميس ، وَخُلِقَ آدَمَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بَعْدَ الْعَصْرِ ، مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ ، مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ . (مسلم) .

« وخلق النور يوم الأربعاء ، كذا هو في صحيح مسلم النور بالراء وروايات ثابت بن قاسم «النون» بالنون في آخره ، وكذا رواه بعض رواة صحيح مسلم وهو الحوت (نقلا عن شرح النووي) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ . (مسلم) .

إني جاعل في الأرض خليفة

أكمل الله عز وجل خلق الأرض ، وبارك ، فيها ، وقدر فيها أقواتها .
جبالها شاهقة سامقة ، وأمطارها نازلة ، وأنهارها جارية ، وأشجارها نامية ،
وأطيافها تعلو إلى السماء وتهوى إلى الأرض ، وحيوانها يجرى في نواحيها .

لمن كل هذا ؟ . وما الغاية من ورثه هذا الإعداد ؟ .

لماذا خلق الله التربة ، ثم الجبال ، ثم الشجر ، ثم المعادن ، ثم الأسماك ، ثم الطير
والحيوان ؟ .

لا بد إذا من مخلوق يسود سيادة مباشرة على هذا كله ، مخلوق فيه من صفات
هذه الأرض ليستطيع أن يتفاعل مع ما فيها ، وفيه من صفات الله ليستطيع أن يتلقى
عنه سبحانه ، ليستطيع أن يسود عليها ، وينوب عن الله فيها . لا بد إذا من خليفة ،

من نائب ينوب عن الله في الأرض .
من أجل ذلك اتجهت إرادة الله تعالى إلى خلق هذا الخليفة .
وبشر سبحانه الملائكة أجمعين ، بالنبا العظيم وقال لهم : « إني جاعلٌ في
الأرض خليفةً ... » (البقرة ٣٠) .

« إني جاعل في الأرض خليفة » أي أنه خليفة الله تعالى في أرضه ، وكذا كل
نبي ، استخلفهم في عمارة الأرض ، وسياسة الناس . وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره
فيهم ، لا حاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليه ، لما أنه في غاية الكدورة
والظلمة الجسمانية ، وذاته تعالى في غاية التقديس . والمناسبة شرط في قبول الفيض
على ما جرت به العادة الإلهية ، فلا بد من متوسط ذي جتهى تجرد وتعلق ، ليستفيض
من جهة ويفيض بأخرى .

ونبأهم الله تعالى عن آدم ، وأخبرهم أنه سيكون من طين ليناسب الأرض التي
أخذ منها ، وأنه سبحانه سترك هذا الطين حتى يتغير ، ثم يخلقه منه ، ثم يتركه حتى
يجف ، وأنه سبحانه سينفخ فيه من روحه ، فإذا تم النفخ فإن عليهم جميعاً أن
يسجدوا له ، تشريفاً لما فيه من روح إلهي .

وأخبرهم سبحانه أن هذا المخلوق سينخلف بعضه بعضاً في الأرض عن طريق
التناسل ، وسيكون من ذريته من يفسد فيها ويسفك الدماء ويملاها شراً ، ومنها من
يصالح فيها ويطع الله ويملاها خيراً . نبأهم سبحانه بآدم وما سيكون من شأنه في
الأرض ، وعادات بنيه من بعده .

قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ
مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ . فَيَذَرُهَا سَوِئَلَةً تُفْسَدُ فِيهَا مِنْ رُوحِي فَتَقَعُوا
لَهَا سَاجِدِينَ » (الحجر ٢٨ : ٢٩) .

« وإذ قال ربك للملائكة ، المراد بهم ملائكة السماء والأرض .

« إني خالق ، فيما سياتى ، وفيه من الدلالة على أنه تعالى فاعل لذلك البتة من غير صارف ولا عاطف .

« بشرا ، جسما كثيفا ، يلاقى ويباشر ، إني خالق خلقا من صفته كيت وكيت .
« من صلصال ، من طين يابس يصلصل أى يصوت إذا نقر ، وقيل : هو من صلصل إذا أتن تضعيف صل يقال : صل اللحم وأصل إذا أتن .
« من حميا ، من طين تغير واسود من مجاورة الماء ويقال للواحدة حمأة . أى من صلصال كائن من حمي .

« مسنون ، أى مصور . وقيل المسنون المتن . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صوت ، ثم غيره طورا بعد طور ، حتى نفخ فيه من روحه .

« فإذا سويته ، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية .
« ونفخت فيه من روحي ، المراد هنا تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها .

« فقعوا له ساجدين ، أمر للملائكة عليهم السلام بالسجود لأدم عليه السلام على وجه التحية والتعظيم .

« وشاع الخبر وذاع في أهل السماء . أن الله سيخلق مخلوقا ينوب عنه في الأرض ، ويخلف بعضه بعضا فيها عن طريق التناسل .

الملائكة الأعلى يختصم

« وكان النبا العظيم فتنة وبلاء للملائكة أجمعين . واختصموا فيما بينهم وتجادلوا في الأمر ، وعجبوا من أمره الذى يريد .

قال تعالى « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتُمْ أَنْتَذِرُ

عُيِّنَ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَبِذْ أُسْوِيتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . (ص ٦٧ : ٧٢) .
« قل هو ، ما أنبأكم به من كوني رسولا منذرا وأن الله تعالى واحد
لا شريك له .

« نبأ عظيم ، خبر ذو فائدة عظيمة جدا .
« أتم عنه معرضون ، متبادون في الإعراض عنه لتماذى غفلتكم .
« ما كان لي من علم ، ما كان لي فيما سبق علم ما يوجه من الوجوه .
« بالملا الأعلى ، بحال الملا الأعلى ، والملا الجماعة الأشراف لأنهم يمثلون
العيون واما النفوس جلالة وبهاء ، والمراد به عند ملا ، الملائكة وآدم عليهم السلام
وإبليس عليه اللعنة وكانوا في السماء .
« وجوز أن يكون المراد بالملا الأعلى الملائكة وباختصاصهم قولهم لله تعالى
« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .
« وعندى أن المراد بالملا الأعلى الملائكة وباختصاصهم تجادلهم فيما بينهم في النبأ ثم
كان ما كان منهم بقولهم بعد أن تجادلوا « أتجعل فيها من يفسد فيها . . . » .
« إذ يختصمون ، إذ يتجادلون .

« إن يوحى إلى إلا أنا أنذر مبين ، ما يوحى إلى حال الملا الأعلى ، أو
ما يوحى من الأمور الغيبية التي من جعلتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأنى نذير مبين
من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحي إليه ومصححاته
« إذ قال ربك للملائكة إني خالق ، والمراد إني خالق فيما سياتى .
« بشرا من طين ، البشر الجسم الكثيف يلاقى ويباشر أو بآدى البشرة ظاهر
الجلد غير مستور بشعر أو وبر أو صوف ، والمراد به آدم عليه السلام .
« فإذا سويته ، فإذا صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية .

« ونفخت فيه من روحي ، فإذا أكلت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التي هي أمري .

« فقعوا له ساجدين ، فاسقطوا له ساجدين ، تحية له وتكريما .
لقد كان النبأ فتنة للملائكة ، وكان الخبر عظيما حقا كما أخبر القرآن . فقالوا لله تعالى « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ » . (البقرة ٣٠) .
عجبا ١ : أنخلق ياربنا في الأرض مخلوقا ليحسبك ، ويفسد فيها ، ويملاها شرا ، ويريق دماء الأبرياء بغير حق ١٤ .

وقالوا لله تعالى « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » (البقرة ٣٠) .
إذا كان المراد من خلقه أن يكون منه من يعظمك وينزهك فنحن نعظمك متلبسين بحمدنا لك على ما وقفنا لتسبيحك ، فنحن نسبحك ليل نهار — سبحان ذي الملك والملكوت سبحان ذي العظمة والجبروت سبحان الحي الذي لا يموت .

وقالوا « وَنُقَدِّسُ لَكَ » (البقرة ٣٠) .
وإذا كان المراد أن يتطهر لعبادتك وينشغل بك عما سواك ، فنحن نفعل ذلك دائما ، نحن نقدر لك ، أى نظهر أنفسنا من الأدناس ، أو نظهر قلوبنا عن الالتفات لغيرك .

لقد كان الأمر عجيبا في فقه الملائكة ، لم يدركوا سر القدر ، ولم يحيطوا علما بأهداف الإرادة الإلهية .

ولذلك قال الرب تبارك وتعالى لهم « إِنِّي أَعْلِمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة ٣٠) .
أعلم من الحسكم في ذلك ما أتم بمزول عنه .

من بعد ذلك الحوار الذي كان بين الله والملائكة ، جعل الملائكة ينتظرون قضاء الله فيهم بعد أن اعترضوا على خلق آدم لاستخلافه في الأرض .

خلق جسد آدم

المكان الذى صور الله فيه آدم عليه السلام هو الجنة ، جنة المأوى ، الجنة التى سيدخلها الصالحون بعد البعث ، التى وعد الرحمن عباده بالغيب .
والزمان الذى خلق فيه آدم ، هو يوم الجمعة ، فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة .

قبض الله تعالى قبضة من جميع الأرض ، من كل عناصر الأرض . كمية كبيرة من أديم الأرض ، كمية من التراب . وهذا هو الطور الأول .
ثم جعل الله تعالى ذلك التراب طينا وهذا هو الطور الثانى .
ثم ترك الله تعالى ذلك الطين حتى أتت وتغير لونه . وهذا هو الطور الثالث .
ثم ترك الله سبحانه وتعالى ذلك الطين المنتن المتغير حتى صار طينا لازبا أى ملتزقا ببعضه ببعض . والمراد طين ملتصق يلزق باليد إذا مس بها . وهذا هو الطور الرابع .

ثم بدء تصوير الجسد من ذلك الطين المنتن المتغير الملتزق . وهذا هو الطور الخامس .

صوره سبحانه فى أحسن صورة لأنه النموذج الأول للجنس البشرى كله .
رجعل الله تعالى طوله ستين ذراعا وعرضه سبعة أذرع ، خلقا سويا جميلا .
روى أحمد عن أبى هريرة مرفوعاً : كان طول آدم ستين ذراعا فى سبعة أذرع عرضاً . .

والمراد ذراعنا نحن لا ذراعه هو عليه السلام .
قال القرطبي ، ويحتمل أن يكون هذا الذراع مقبلاً بأذرعنا المتعارفة عندنا . .
وأنتم سبحانه خلق ظاهره وباطنه ، جميع الأعضاء وجميع التجاريف ، وجميع العضلات . وجميع الأمعاء ... وهكذا .

وترك الله جسد آدم بعد أن صورته بلقى في الجنة حتى جف تماماً ، وأصبح يصلصل كما يصلصل الفخار ، ويصوت إذا نقر ، وهذا هو الطور السادس .
قال تعالى « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ .. » (الأنعام ٩٨) .

« وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة » ، أى آدم عليه السلام وهو تذكير لنعمة أخرى فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتعاطف . وفيه أيضاً دلالة على عظم قدرته سبحانه وتعالى .

« فمستقر ومستودع » ، أى فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض ، واستيداع في الأرحام أو في القبر . أو المستقر الرحم والمستودع الأصلاب .

وقال « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ .. » (الأعراف ١١) .
« ولقد خلقناكم ثم صورناكم » ، خلقنا أباكم آدم عليه السلام طيناً غير مصور ثم ثم صورناه أبداع تصوير وأحسن تقويم . والمراد ابتداءنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه .

وقال « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ . » (الحجر ٢٦) .

« ولقد خلقنا الإنسان ، أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفرادهِ خلقاً بديعاً منظوياً على خلق سائر أفرادهِ انطوائاً إجمالياً .

« من صلصال » أى طين يابس يصلصل أى يصوت إذا نقر . أو الطين المخلوط بالرمل . أو هو من صلصل إذا اتن تضعيف صل يقال : صل اللحم وأصل إذا اتن .
« من حملا » من طين تغير ونسود من مجاورة الماء ويقال للواحدة حمأة .

« مسنون » مصور ، أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الإنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب ، أو المسنون المتن .

وقال «الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» . (السجدة ٧) .

«الذى أحسن كل شئ خلقه» أى حسن سبحانه كل مخلوقاته لأنه ما من شئ منها إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت في مراتب الحسن كما يشير إليه قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» .

«وبدأ خلق الإنسان من طين» أى آدم عليه السلام ، بدأ خلق هذا الجنس المعروف من طين حيث بدأ خلق آدم عليه السلام خلقا منظوبا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليا منه .

وقال ، «إنا خلقناهم من طين لازب» . (الصافات ١١) .
«إنا خلقناهم» أى خلقنا آدم عليه السلام .

«من طين لازب» من طين ملتصق ، ملتصق ببعضه ييمض ، يلزق باليد إذا مس بها . عن ابن عباس أنه قال : اللازب والحيا والطين واحد كان أوله ترابا ثم صار حيا منتننا ثم صار طينا لازبا فخلق الله تعالى منه آدم عليه السلام .

وقال «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» . (الرحمن ١٤) .
«خلق الإنسان» خلق آدم عليه السلام .

«من صلصال» الطين اليابس الذى له صلصلة ، وأصله تردد الصوت من الشئ اليابس ومنه قيل : صل المسمار .

«كالفخار» وهو الخزف أعنى ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمى بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاهر . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طينا ثم حيا مسنونا ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين .

وقال «خلق الإنسان من عجل» . (الأنبياء ٢٧) .

« من عجل ، هو طلب الشيء وتحريه قبل أوانه ، والمراد بالإنسان جنسه ، جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من نفس العجل ، تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان ، إذ انا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه . وقال « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ » . (التين ٤) .

أى قومناه تقويماً أحسن تقويم ، والمراد بذلك جعله على أحسن ما يكون صرورة ومعنى .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ . (مسلم) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ، طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعاً ، قَلَمًا خَلَقَهُ قَالَ : اذْهَبْ قَسَلْتُمْ عَلَى أَوْلَئِكَ الْفَقْرَ مِنَ الْمَلَأِئِكَةِ ، جُلُوسٌ ، فَاسْتَمِيعْ مَا يُحْيُونَكَ ، فَإِنَّمَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحْيَةُ ذُرِّيَّتِكَ . فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ . فَرَادَوْهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، قَلَمٌ يَزُلُ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ . (البخارى) .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَالْأَسْوَدُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ ، وَالْحَزَنُ ، وَالْخَبِيثُ ، وَالطَّيِّبُ . (الترمذى)

هذا وقد جاء في شرح ابن العربي على الحديث. «ليس أحد الأجزاء المذكورة من الأرض لخلق آدم بأمر واجب في العقل لا يجوز غيره، بل جائز يمكن صحيح ثابت أن يخلق آدم ابتداء من غير شيء، كما خلق الأصل في كل شيء، ولكنه مدبر حكيم، أراد خلق الأصول من غير شيء ليبين القدرة، ثم خلق من الأصول المركبات ليبين الحكمة، فهو التقدير الحكيم. لو شاء لخلق الناس على صفة واحدة، ولكنه نوعهم في الصفات، كما نوع أجزاء الأرض، وأخذ من تلك الأجزاء جملة صور منها آدم، على نسبة بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم، غلب فيها في المخلوقين بعض الصفات على بعض، فجاء منهم أحر، وأبيض، وأسود، وسهل، وحزن، وخبيث، وطيب، وقد تعادل على تناسب، بحكمة بالغة.

قوله فمنهم الحزن ومنهم السهل يعنى بالحزن الذى لا تمكن صحبته، ولا تلاين أخلاقه. كالأرض الحزنة لا يتأق المشى فيها، أو يتأق على مشقة، ولا يوافق الاستقرار علما للسكن إلا للضرورة. ومنهم الحسن الصعوبة، اللين الأخلاق، الموائى فى المقاصد، كالأرض السهلة يتأق المشى عليها، ويمكن الاستقرار فيها. قوله ومنهم الخبيث الذى لا منفعة فيه أو فيه مضرة ومنهم الطيب الذى ننتفع به ولا مضرة فيه.

ومن حديث الشفاعة الطويل :

« قَالَ : قِيَّامُونَ آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْخَلْقِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، (مسلم) .
وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
خُلِقْتُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَنُّ مِنَ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ
آدَمُ مِنْ مَاءٍ وَصَفَّ لَكُمْ . (مسلم) .

« الجن ، الجن

« المارج ، اللهب المختلط بسواد النار .

إبليس يطوف بالجسد

ترك الله الجسد ملق في الجنة ، وجعل الملائكة يطوفون حوله وينظرون إليه كانوا يستغربون ويتعجبون من شأنه . ما هذا الشيء الطويل ، وما هذا المنظر العجيب ؟ . وكيف يتحول هذا الشيء الجاف الذي لا حركة فيه إلى مخلوق نسجده؟ لم يكونوا يعرفون بعد كيف يتحول إلى شيء يتحرك .

وكان فيمن طاف بالجسد ونظر إليه ، ملك كبير سمي فيما بعد « إبليس » . فلما رآه صاحب جوف ، ورأى له أحشاء ، وأعضاء ، وعرف أن ذرية ذلك المخلوق من السهل عليه أن يضلها ويوسوس إليها ، ويدفعها إلى الشر . وتعجب إبليس في نفسه : أهذا هو المخلوق الذي يريد الله أن أسجد له ؟ .
أسجد لبشر من طين هذا شأنه من المهانة والضعف ؟ .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَرَكَهُ ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَتَأَمَّ رَأَاهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ . (مسلم)

« يطيف به » قال أهل اللغة طاف بالشيء . يطوف طوفاً وطوافاً وأطاف يطيف إذا استدار حواليه .

« فلما رآه أجوف » الأجوف صاحب الجوف وقيل هو الذي داخله خال .
« عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك » ومعنى لا يتمالك لا يملك نفسه ويجبسها عن الشهوات ، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب . والمراد جذس بني آدم .

قال تعالى : يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا . . (النساء ٢٨) .

« يريد الله أن يخفف عنكم ، في التكليف في أمر النساء والنكاح . وقبل يخفف في التكليف على العموم فإنه تعالى خفف عن هذه الأمة ما لم يخفف عن غيرها من الأمم الماضية . وقيل : يخفف بقبول التوبة والتوفيق لها . » وخلق الإنسان ضعيفاً ، أى في أمر النساء ، لا يصبر عنهن . وقبل يستميله هواه وشهوته ويستشيطه خوفه وحزنه . وقيل : عاجز عن مخالفة الهوى وتحمل مشاق الطاعة . وقيل ضعيف الرأي لا يدرك الأسرار والحكم إلا بنور إلهي . وعن الحسن أن المراد ضعيف الخلقة يؤله أدنى حادث نزل به .

بين الروح والجسد

هنالك ... وآدم بين الروح والجسد ، وجبت النبوة لسيد الخلق أجمعين ، محمد صلى الله عليه وسلم . أوجب الله نبوته صلى الله عليه وسلم في ذلك الحين ، لتكون من بعد في ذرية آدم عليه السلام ، تماماً لمكارم الأخلاق ، إكمالاً لعظمة الجنس البشري ، ورداً للناس إلى فطرة أبيهم آدم التي فطره عليها . علم الله أنه لا بد لسلالة هذا المخلوق ؛ من نور من الله يهديها إذا ضلت ويرشدها إذا غوت ، لا بد من نبوة تبعث فيها كلما طال عليها العهد ، فكان إمام النبوة هو محمد صلى الله عليه وسلم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النَّبُوءَةُ ؟ قَالَ : وَآدَمُ يَسْنُ الرُّوحَ وَالْجَسَدَ . (الترمذى) .

ونفخت فيه من روحي

جف الجسد وصلصل كما يصلصل الفخار إذا نقر ، وأصبح مستعداً لإفاضة الحياة عليه .

واتجهت إرادة الله إلى خلقه إنساناً سورياً .

فنفخ الله تعالى في الجسد من روحه جل وعلا ، أى من أمره .
فسرت الروح في الجسد ، وتحول الطين الجاف المصور إلى مخلوق حى جميل
مدرك ، يشعر ويدرك ويبصر ويسمع ويشم ويشتهى .
قال تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . (آل عمران ٥٩) .
« إن مثل عيسى ، إن صفة عيسى .
« عند الله ، أى فى تقديره وحكمه ، أو فيما غاب عنكم ولم تطلعوا على كنهه .
« كمثل آدم ، كصفته العجيبة التى لا يرتاب فيها مرات .
« خلقه من تراب ، ابتداء خلق قلبه من هذا الجنس .
« ثم قال له كن فيكون ، أى صر بشرا فصار . فإن كنتم تعجبون من خلق عيسى
من غير أب ، فلا عجب فقد خلقنا آدم من غير أب ولا أم .
فلما سرت الروح فى الجسد عطس آدم وقال : « الحمد لله » ، فرد الله تعالى عليه
« رحمك الله يا آدم » .
ونفض الجسم الجميل واعتدل قائما ، وذهب وأتى ونظر إلى ما حوله . إلى الجنة
فى جمالها وظلالها وروائها . مخلوقا فى أحسن صورة وأكملها ، شاهق الارتفاع ،
ستون ذراعا فى السماء أى فى الارتفاع ، حاريا حافيا أغرل أى لم يختن ، على الفطرة
لا يدرى ما الخير وما الشر . إنه لم يختبر بعد .
دخلت الروح تحمل صفات الله ، صفات أصلها ، وهذا هو معنى شاق آدم على
صورة الرحمن .
قال تعالى : « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ » . (الحجر ٢٩) .
وقال : « فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » ،
(ص ٧٢) .
« ونفخت فيه من روحي ، فإذا أكلت استعداداه وأفضت عليه ما يحيا به من
الروح الطاهرة التى هى أمرى .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَسْتَنْبِ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَخْلَقَ آدَمَ
عَلَى صُورَتِهِ . (مسلم) .

ومن العلماء من يمسك عن تأويلها ، ويقول : تؤمن بأنها حق ، وأن ظاهرها
غير مراد ، ولها معنى يليق بها . وهذا مذهب جمهور السلف ، وهو أحوط وأسلم .
والثاني أنها تتناول على حسب ما يليق بتنزيه الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال تَخَطَّبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ مَخْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ، حُفَاةً ، عُرَاةً
عُذْرَاءً ، ثُمَّ قَالَ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ تَخْلُقُ نُعِيدُهُ وَنَعْدَا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا
فَتَاغِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ... (البخارى) .

و غرلا ، جمع أغرل وهو الذى لم ينجثن .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
لَمَّا تَخْلَقَ اللَّهُ آدَمَ ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، عَطَسَ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .
فَحَمِدَ اللَّهُ بِإِذْنِهِ . فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا آدَمُ ... (من حديث
الترمذى) .

الملائكة تحيي آدم

ثم أمر الله تعالى آدم عليه السلام وقال له : اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملائكتهم
منهم جلوس فقل السلام عليكم .

وذهب آدم كما أمره ربه ، يمشى في الجنة ، حتى وصل إلى جماعة من الملائكة
تجلس في مكان منها وقال لهم : السلام عليكم .

وقال اجمع المجلس من الملائكة : وعليك السلام ورحمة الله .

ورجع آدم إلى ربه بعد أن فعل ما أمر .

فقال الله تعالى لآدم « إن هذه تحيئك ونحية بنيك بينهم » .

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً ، ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَاسْتَمِيعْ مَا يَحْيِيُونَكَ ، تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ ، فَرَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ ، فَكُلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ . (البخارى) .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً ، فَلَمَّا خَلَقَتْهُ قَالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفْسِ ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ . فَاسْتَمِيعْ مَا يَحْيِيُونَكَ ، فَاتَّهَا تَحْيِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . قَالَ : فَذْهَبَ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ . قَالَ : فَرَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِ ، قَالَ : فَكُلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعاً ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ . (مسلم) .

وهذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في « صورته » ، عائد إلى آدم وأن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير .

ميثاق النذر

ثم أراد الله تعالى أن يبين لآدم وذريته جميعاً الغاية التي من أجلها خلقهم جميعاً . فسمح الله لآدم فسقط من ظهره كل نسمة ، كل روح هو نازلها من ذريته إلى

يوم القيامة . وعلى مشهد من جميع أرواح الناس قال الله تعالى « ألسنت بربكم » .
فقال الله تعالى « ... أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا
إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .
وكذلك أشهد الله أرواح بني آدم على أنفسهم ، أشهدهم أنه ربهم لا شريك له ،
وأنه خالقهم ، وكان ذلك على مشهد من آدم ومن الله وكفى بالله شهيداً .
وهذا هو الميثاق الأول الذى أخذه الله على جميع الناس فى عالم الأرواح ، وقبل
هذه الحياة الدنيا .

قال تعالى « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا
أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . (الأعراف ١٧٢ : ١٧٣)

« وإذ أخذ ربك ، إن الآية مسوقة لبيان أخذ ميثاق سابق من جميع الخلق
مؤمنهم وكافرهم قبل هذه النشأة بما هو أم الأمور والأصل الأصيل لجميع التكليفات
على وجه نحال بما يشبه الإكراه متضمن لا لزوم المشركين المعاصرين له صلى الله تعالى
عليه وسلم ودفع احتجاجهم . أى واذكر لهم أو للناس إذ أخذ ربك .

« من بنى آدم ، من آدم عليه السلام ثم من بنيه من بعد ذلك .
« من ظهورهم ، من ظهر آدم أخذت جميع ذريته ، ومن ظهر كل إنسان أخذت ذريته
« ذريتهم ، أولادهم على العموم ، والمراد إخراج الفروع من الأصول .
« وأشهدهم على أنفسهم ، وأشهد كل واحد من أولئك الذرية المأخوذ من
ظهور آبائهم على أنفسهم لا على غيرهم تقريراً لهم بربوبيته سبحانه وتعالى التامة
قائلاً لهم .

« الست بربكم ، أى مالك أمركم ومر بيكم على الإطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم ؟ »

« قالوا ، فى جوابه سبحانه وتعالى .

« بلى شهدنا ، أى على أنفسنا بأنك ربنا لا رب لنا غيرك والمراد أقررنا بذلك .

« أن تقولوا ، فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، لئلا تقولوا .

« يوم القيامة ، عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك .

« إنا كنا عن هذا ، عن وحدانية الربوبية .

« غافلين ، لم ننبه عليه .

« أو تقولوا ، فى ذلك اليوم .

« إنما أشرك آبائنا من قبل ، أى إن آباءنا هم اخزعوا الاشراك وهم سنوه من

قبل زماننا .

« وكنا ذرية من بعدهم ، وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نهتدى إلى سبيل التوحيد .

« أقتلكننا ، أى أتواخذنا قتلكننا اليوم بالعذاب .

« بما فعل المبطلون ، من آباءنا المضلين ؟ . لا نراك تفعل .

والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا

تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار

التكليف وإلا لعملنا بموجبه .

ومن ذلك ما أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، والبيهقى ، وابن عساكر .

وجماعة عن أبى بن كعب أنه قال فى الآية : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً فى صورهم ثم

استنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم ؟

قالوا : بلى قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع وأشهد عليكم آباكم آدم أن تقولوا

يوم القيامة إنا لم نعلم بهذا اعلوا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئاً إني

سأرسل إليكم رسلي بذكر ونكم عهدي وميثاقى وانزل عليكم كتيبى قالوا : شهدنا

بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فاقروا ورفع عليهم آدم ينظر إليهم
فراى الغنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال : يارب لولا سويت بين عبادك
قال : إني أحببت أن أشكر .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَقُولُ
اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً : لَوْ كَانَتْ لَكَ
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ :
قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ
(أَحَبُّهُ قَالَ) وَلَا أَذْخِلَكَ النَّارَ فَأَيُّنْتَ إِلَّا الشُّرَكَ (مسلم) .

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ
هَذِهِ الْآيَةِ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْتَلُّ عَنْهَا ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ
ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ
لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُونَ أَعْمَالَهُ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ
فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُونَ
الْأَعْمَالِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ : فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ
اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ
أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ
بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ
فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ النَّارَ . (الترمذى) .

« مسح ظهره ، المراد به في حق الباري وجود الفعل بقدرته على الوجه الذي أراد .
« وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قررهم على توحيدده فاعترفوا به عن .
آخرهم .

« قالوا بلى ، هذا إقرار محض واعتراف صرف .

« أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ليس لأحد على الباري حجة .
ولا يتصور لمخلوق عليه اعتراض لأنه الفعال لما يريد من غير حجر ولا تخصيص
بفعل دون فعل بيد أنه أجرى العادة بالتنبيه على المطلوب حتى يرتفع عذر المسكف
فتختلف عن طريق العادة فتجرى على الحكمة ولا تخرج من طريق الحجة .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله
آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة
وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال
أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك ... (من حديث الترمذی) .

« بين عيني كل إنسان منهم ويصاً ، أخبر أنه لما أسقطهم من ظهره جعل بين عيني .
كل إنسان منهم ويصاً يحتمل أن يكون على عمومته في المؤمن والكافر ثم محاً نور
الكافر فلا يجدد كما ينور الله قلب العبد بالإيمان ثم يختم له بالكفر فيظلمه ونعوذ بالله
من ذلك . ويحتمل أن يكون النور في وجوه المؤمن خاصة . وروى أن النور إنما كان
في وجوه الأنبياء والتقدير جعل بين عيني كل إنسان من الأنبياء .

ومن حديث الترمذی « فقال الله له ويداؤه مقبوضتان . اخترت أيهما شئت ،
قال : اخترت يميني ربّي وكلتنا يدي ربّي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم
وذريته ، فقال : أي رب ما هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء ذريتك ، فإذا كل إنسان
مكتوب عمره بين عيني ... (الترمذی) .

لقد كان مشهداً عظيماً ، يوم عرض الله تعالى على آدم عليه السلام جميع أرواح
بنيه ، ذكرهم وأثامهم ، شقيهم وسعيدهم ، فقيرهم وغنيهم ، طريالهم وقصيرهم .

وأشفق آدم عليه السلام من اختلاف أقدار بنيه ، وسأل ربه تبارك وتعالى أن يسوى بينهم ، فأرشده سبحانه إلى حكمته في ذلك . وقال : « أردت أن أشكر » . يعنى على النعم التي منها القوة والصحة والغنى فصار حظ النعمة أوقع في المقادير من حظ الابتلاء .

وعلم آدم الأسماء كلها

ثم أراد الله تعالى أن يظهر للملائكة أجمعين أن آدم عليه السلام يعلم ما لا يعلمون ، وأنه بذلك هو الصالح للخلافة في الأرض . فأوحى إلى آدم عليه السلام اسم كل شيء ، عرض عليه كل شيء ، في السماء والأرض وعليه ماذا يسميه وفيه يستعمل ولماذا خلق . إن الله خلق كل ما في الأرض ليسخره الإنسان لمنفعته ، فألهم آدم اسم هذه الأشياء وفيه تستعمل وكيف تستعمل . وكذلك أصبح آدم عليه السلام ، عالما بكل شيء في الأرض أو في السماء ، عالما بكيفية استعماله .

قال تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... » . (البقرة ٣١) .

« وعلم ، أى فخلقه وسواه ونفخ فيه الروح وعلم .
« آدم ، سمى كذلك لأنه أخذ من أديم الأرض أى ما ظهر منها .
« الأسماء ، المراد بالأسماء صفات الأشياء ونعوتها وخواصها . أو أسماء الأشياء علوية أو سفلية جوهرية أو عرضية . وألهمه معسرة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفصيل آلاتها وكيفيات استعمالها .

« كلها ، ما من طير يطير بمحتاجه إلا دعاه الله سبحانه إلى آدم فسماه باسمه وأوضح فيها يستعمل ، وما من حيوان يدب على الأرض إلا جمعه الله لآدم فسماه وبين منفعته للإنسان .

لقد جمع الله تعالى لأدم عليه السلام العلم بالدنيا وكيفية عمارتها وتسخيرها ،
وهذا ما لا يعلمه الملائكة ولا سبيل لهم إليه .
وجمع له عليه السلام علم الآخرة وما يكون عليه الإنسان في النهاية من نعيم
أو شقاء ، وكيف يكون وما عليه يكون .
وبذلك أصبح ذلك الجسد من طين فيه ما ليس في الملائكة الذين هم من نور .
وتلك معجزة الله العظمى في خلق الإنسان .

أُنْبِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ

وعلى ملائكة الملائكة أجمعين ، أقام الله آدم ليشرفه ويرفعه عليهم مكانا عليا .
وعرض سبحانه على الملائكة كل شيء سبق أن علمه لأدم وألمحه خاصية وكيفية
استعماله .

قال تعالى : ثُمَّ عَرَضَ عَنْهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، (البقرة ٣١) .
وتم عرضهم على الملائكة ، ومعنى عرض المسميات تصويرها لقلوب الملائكة ، وإظهارها
لهم كالدر ، أو إظهار ذلك لهم في عالم تتجسد فيه المعاني وهذا غير ممتنع على الله تعالى .
وقال سبحانه للملائكة : أُنْبِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ، . (البقرة ٣١) .
أخبروني بأسماء هذه الأشياء وفيهم تستعمل . والمراد إظهار عجزهم وقصور
استعدادهم عن رتبة الخلافة الجامعة للظاهر والباطن بأمرهم بالإنباء بتلك الأسماء
على الوجه الذي أريد منهم والإنباء في الأصل مطلق الإخبار ، ويطلق على الإخبار
بما فيه فائدة عظيمة ، واختاره هنا للإيدان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها وهذا
مبنى على أن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم .
ثم قال الله لهم : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، . (البقرة ٣١) .
أي إن كنتم صادقين فيما تزعمون من استحقاقكم الخلافة عني في الأرض ،
فخبروني ما اسم هذه الأشياء وفيهم تستعمل ؟

أو إن كنتم صادقين فيما اختلج في خواطركم من أنى لا أخاق خلقا إلا أتم أعلم منه وأفضل .

ووقف الملائكة كلهم لا يعلمون ماذا يجيبون . إنهم لا يعلمون شيئا عن أسماء الأشياء التي خلقها الله في الأرض لاستعمال الإنسان . إنهم لم يخلقوا لباكلوا ويشربوا فلا سبيل لهم إلى علم ما يؤكل وما يشرب ، ولم يخلقوا ليسعوا على معاشهم فلا سبيل لهم إلى علم المعاش وما تقوم به الحياة . إنهم خلقوا للتسبيح والعبادة فإذا يقولون : سيقولون ما يناسب طبيعتهم ، سينزهون الله ويسبحونه . وقال الملائكة أجمعون « سُبْحَانَكَ » .

نزهك يا رب تنزيها عن أن يكون فيما قضيت شيء يخالف الحكمة . ولا علم لنا إلا ما علمتنا ، لا علم لنا أصلا ، ولكن ما تفضلت به علينا وأوحيت عليه إلينا ، وأنت لم تعلمنا أسماء هذه الأشياء وخاصيتها ، وإنما اختصاصت بها آدم الذي أعددت له هذا الأمر .

وختم الملائكة اعتذارهم قائلين « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » (البقرة ٣٢) . إنك أنت العليم الذي أحاط بكل شيء علما أما نحن فنجهل هذا الأمر . الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها . لما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكل أوصافه وأردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين ما تبين .

يا آدم أنبئهم بأسمائهم

وعلى ملا من جميع الملائكة شرف الله آدم تشريفا وكرمه تسكريما . وناداه ربه « يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » .

نبيء يا آدم الملائكة بأسماء هذه الأشياء جميعا وفيهم تستعمل . سم كل شيء فكيفما سميته سيكون اسمه . وفيهم يستعمل فكيفما تقول سيكون استعماله . سمى آدم كل شيء وذكر استعماله وخصائصه وفي ذلك يقول سبحانه :

وَقَالُوا نَبَاَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ آدَمَ الْمَلَائِكَةَ بِأَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا .
هنا لك أدرك الملائكة كلهم فضل آدم الذي كانوا يعترضون على استخلافه في
الأرض . وأدركوا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته . وأنهم كانوا على غير حق
فيما يقولون .

وهنا لك قال تعالى للملائكة أجمعين وعلى مشهد من آدم : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ . (البقرة ٣٣) .

ألم أخبركم حينما اعترضتم على استخلاف آدم أنني وحدي الذي أعلم ما غاب عن
علم الخلائق في السماوات كلها والأرض كلها ، وأني أعلم ما تظهرون من أقوال
وما كنتم تسرون في أنفسكم نحو هذا الأمر وزعمكم أن الله لن يخلق مخلوقاً أكرم
عليه منكم ؟ .

لقد ظن الملائكة أنهم لتقدسهم وتطهرهم واستمرارهم على الطاعة ، وامتناع
المعصية منهم ، وما أوتوا من العلم . ظنوا لذلك كله أنهم أفضل ما خلق الله ، وأنهم
لذلك أحق بالخلافة في الأرض . كيف لا وهم يطيعون ويسبحون ويتقربون ، وذرية
آدم ستعصى وتضل وتفسد ؟ فأظهر الله تعالى حقيقة آدم ، وما اختصه به سبحانه
من العلم الزائد على علمهم ، فألهمه أسماء الأشياء ، وأظهر فضله عليهم حيث عرف
الأشياء ولم يستطيعوا هم ذلك ، ثم أراد أن يزيدهم بلاءً ويزيد آدم رفعةً فأمرهم . .

اسجدوا لآدم

بعد أن استبان للملائكة أجمعين أن آدم أوتي من العلم ما لم يوتوا ، واستحق
بذلك الخلافة في الأرض .

أمرهم الله جميعاً : اسجدوا لآدم . (البقرة ٣٤) .
خروا كلكم سجداً لهذا الذي كرمت عليكم .

« فَتَجَدَّ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » (الحجر ٣٠) .
فامثل على الفور كل الملائكة ، وسجدوا لآدم كما أمرهم ربهم .
يا له من مشهد عظيم ! . جميع الملائكة مع ما لهم من مكانة عند الله يسجدون
أمام آدم ، ويجعلون آدم قبلتهم ، امتثالاً لأمر ربهم الذي جبلوا وفطروا على طاعته .
وبذلك بلغ تكريم آدم في السماء غايته ، وأسجد الله له ملائكته ، ليعلم من هذا
أن من أطاع الله طوع له كل شيء .

وكان ذلك هو أعلى حد بلغه آدم ، وذروة سنام تكريمه على الملأ الأعلى .
قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ
عَلَى الْعَالَمِينَ » . (آل عمران ٣٣) .

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ، الاصطفاء الاختيار ، وأصله أخذ صفوة الشيء .
كلاستصفاه . وبدأ بآدم عليه الصلاة والسلام لأنه أول النوع .
ومن هنا استدل بعضهم بالآية على أفضلية الأنبياء على الملائكة ، ووجه الاصطفاء
في جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات
الروحانية والكمالات الجسدية حتى أنهم امتازوا كما قيل : على سائر الخلق ، خلقاً
وخلقاً ، وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى ، ومظهر أسمائه وصفاته ، وعمل تجليه
الخاص من عباده ، ومهبط وحيه ، ومبلغ أمره ونهيه وقبل اصطفي آدم بأن خلقه
بيديه ، وعليه الأسماء ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جواره .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع
المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيرجئنا من مكانتنا
هذا ؟ فيأتون آدم فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، وأسجد
لك الملائكة وعليك أسماء كل شيء ، فاشفع لنا إلى ربنا ، حتى يرجئنا ، فيقول
لهم : لست هناكم ، فيذكر لهم خطيئته التي أصاب (البخاري) .
وعن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم ينتظرونه ، قال : فخرج ، حتى إذا أدنا منهم سمعهم يتذكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجبا ، أن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا . اتخذ إبراهيم خليلا وقال آخر : ماذا أبأعجب من كلام موسى كلمة تكليما ، وقال آخر : فعبسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم ، وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، وموسى نبي الله ، وهو كذلك ، وعيسى روح الله ، وكلمته ، وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ، ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول من يحرك خلق الجنة ، فيفتح الله لي ، فيدخلنيها ، ومعى فقراء المؤمنين ، ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ، ولا فخر . (الترمذى) .

وعندى أن من اصطفاه آدم ، وأسباب تفضيله على الملائكة ، أنه أصل البشر جميعا ، ومنه كان الناس كلهم ، وهو أمر لو فكر فيه إنسان لأدرك مدى كرامة آدم فليست كرامته عليه السلام فيما جعله الله في خلقته وروحه من مزايا فحسب ، ولكن في تسلسل هذه البشرية منه . وما ظهر من أنبياء وصالحين من ذريته . وما سيكون منهم بعد ذلك من همار الجنة والنار . لقد كان بداية قصة عظيمة ان تنتهى أبدا . لأن أبناءه من بعده سيخلدون في إحدى الدارين ولا نهاية لخلودهم .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . (النساء ١) .

« يا أيها الناس ، خطاب بعم المكلفين من لدن نزل آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة ، والناس تشمل الذكور والإناث بلا نزاع .
« الذى خلقكم من نفس واحدة ، هي آدم عليه السلام .

« رخلق منها زوجها ، المراد من الزوج حواء وهى قد خلقت من ضلع آدم عليه السلام الأيسر .

« ويث منها » أى نشر وفرق من تلك النفس ، وزوجها ، على وجه التناسل والتوالد « رجالا كثيرا ونساء » كثيرا جداً جداً ، لا حصر لهم ، وليس فى مقدور أحد أن يحصرهم ، نحن فقط نعلمهم ، المستقدمين منهم والمستأخرين ، لقد أحصيناهاهم وعددناهم عدداً .

هذا هو أقوى - الوجوه - عندى فى خلق آدم عليه السلام ، وإلى هذا يشير قوله سبحانه « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » (الروم ٢٠) .

« ومن آياته » الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح من دلالة ما سبق فإن دلالة بدأ خلقهم على إعادتهم ، أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى .

« أن خلقكم » أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه عليه السلام منطوق على خلق ذرياته انطواء اجمالياً .
« من تراب » لم يشم رائحة الحياة قط ، ولا مناسبة بينه وبين ما أتم عليه ، فى ذاتكم ، وصفاتكم

« ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » أى فى الأرض تتصرفون فى أغراضكم وأسفاركم . هذا هو وجه العجب ، فى اصطفاء آدم ، وتفضيله على الملائكة .

إلا إبليس أبى

سجد الملائكة كلهم ، أجمعون ، لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد بل ، أوقعوا الفعل مجتمعين فى وقت واحد . إلا إبليس ، أبى أن يكون مع الساجدين . لقد كان إبليس من الجن ، وهو صنف من الملائكة ، لا تراهم الملائكة ، مثلنا ، لشدة قربهم من الله .

كان ملكاً كبيراً مقرباً ، وكان يعلم من الله ما لا يعلم غيره من الملائكة .
وقد أسر في نفسه أمراً منذ أخبره الله تعالى ضمن سائر الملائكة أنه خالق بشراً
من طين ، وأنه مستخلفه في الأرض ، وأن عليه أن يسجد له فور نفخ الروح فيه .
أسر أنه لن يسجد لهذا البشر من طين ، لأنه خير منه ، لأنه خلق من نار ، بينما آدم
خلق من طين ١١ وأخفاها في نفسه ولم يبدها ، حتى كان البلاء ، وأمر الله الجميع
بالسجود .

فلما سجد الملائكة كلهم ، تنحى إبليس جانباً ، وأقف ، واستكبر أن يسجد لآدم .
وعلى أعين الجميع ، على مشهد من آدم ، والملائكة أجمعين ، دار بين الله تعالى
وبين إبليس الحوار الخالد .

أنا خير منه ١١

الله : مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ .
إبليس : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .
الله : فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَمَأْخُذٌ
لَكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ .
فاهبط منها ، أصل الهبوط الانحدار على سبيل القهر كما في هبوط الحجر .
فاخرج من صورة الملائكة إلى صورة الشيطان ، فاخرج من الجنة إلى الأرض ،
فاخرج من السماء إلى الأرض . اخرج من زمرة الملائكة المعززين .
وما يكون لك أن تتكبر فيها ، فما يصح ، ولا يستقيم ، ولا يليق بشأنك أن
تتكبر في الجنة ، أو في السماء .

والجمله تعليل للأمر بالهبوط ، ولا يخفى لطاقة التعبير به دون الخروج في مقابلة
قوله (أنا خير منه خلقتني من نار) المشير إلى ارتفاع عنصره وعلو محله ، والتكبر
كالكبر ، وهو الحالة التي يختص بها الشخص من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى

نفسه أكبر من غيره وأعظم . والمراد بالتكبر همنا ، إما التكبر على الله تعالى ، وهو أعظم التكبر ، ويكرن بالامتناع ، عن قبول الحق ، والإذعان له بالعبادة ، وفسره بعضهم بالمعصية . وإما التكبر على آدم عليه السلام ، بزعمه أنه خير منه ، وأكبر قدرا : وإما التكبر على الملائكة حيث زعم أن له خصوصية ، ميزته عليهم وأخرجته من عمومهم . وزعم البعض أن في الآية تنبيها على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة ، فكما يمنع من القرار فيها ، يمنع من دخولها بعد ذلك ، وأنه تعالى إنما طرده لتكبره ، لا لجرده عصيانه .

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله . (مسلم) .

« فخرج إنك من الصاغرين ، أي إنك من أهل الصغار والهوان على الله تعالى ، وعلى أوليائه لتكبرك .

وقيل : المراد من الإذلال في الدنيا بالذم واللعن . وفي الآخرة بالعذاب بسبب ما ارتكبه من المعصية والتكبر . والمراد وصفه بأنه خسيس الطبع ذئب ، وأنه رأى نفسه أكبر من غيره وليس بالتكبر .

إبليس : أنظرني إلى يوم يُبْعَثُونَ .
« أنظرني ، أمهلني ولا تمتني .

« إلى يوم يبعثون ، إلى يوم يبعث آدم وذريته وهو وقت النفخة الثانية ، وأراد بذلك أن يجد فسحة في الاغواء ، وأخذ النار ، ونجاة من الموت ، إذ لا موت بعد البعث .

الله : إنك من المنظرين .

« إنك ، إنك يا إبليس .

« من المنظرين ، من المهملين ، من المؤخر موتهم ، والمؤخر عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم ، أي يوم النفخة الأولى .

إبليس : فبمّا أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثمّ لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين .
فبما أغويتني ، فبسبب اغوائك إياي ، لأجلهم ، أقسم بمزتك . بما أضللتني .
لأقعدنّ لهم ، أى لأدم عليه السلام وذريته ، ترصدا بهم ، كما يقعد القطاع للسابلة . أى لألزمهم لهم .

« صراطك المستقيم » الموصل إلى الجنة وهو الحق الذى فيه رضاك . لأبعدهم عن طريقك المستقيم .

« ومن خلفهم » ومن جهة الماضى .

« وعن أيمانهم » ومن جهة حسناتهم فأدخل عليهم فيها ما يبطلها من جهة الخير فأصدهم عنه .

« وعن شمائلهم » ومن جهة السيئات ، من جهة الشر فأزينه لهم .

والمراد لأسولنّ لهم ، ولأضلنهم بقدر الإمكان ، إلا أنه شبه حال تسويله ووسوسته لهم كذلك بحال إتيان العدو لمن يعاديه من أى جهة أمكنته .
« ولا تجد أكثرهم شاكرين » أى مطيعين .

الله : أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . (الأعراف ١٢ : ١٨) .

« أخرج منها » أى من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ، أو من السماء .

« مذموما » أى مذموما ، أو مهانا لعينا .

« مدحورا » وهو من الدحر ، بمعنى الطرد والإبعاد ، أى مطروداً مبعداً .

ثم ان الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة كانت منه عز وجل من غير واسطة ، وليس المقصود منها الإكرام والتشريف بل التعذيب والتعنيف .

لم أكن لأسجد لبشر ١٩

ودار الحوار . . .

الله : يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟ .
أى أى سبب لك ، ما منعك ، فى أن لا تكون مع الساجدين لما خلقت .
والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة وهو منصب عال إذا كان على سبيل
الإعظام والإجلال ، دون الإهانة والإذلال .
إبليس : لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ

« لم أكن لأسجد ، ينافى حالى ولا يستقيم منى أن أسجد .

« لبشر ، جسمانى كثيف .

« خلقت من صلصال ، من طين جاف .

« من حمإ مسنون ، أصله من طين متين قد تغير لونه .

وقد عني اللعين بهذا الوصف بيان مزيد خسة أصل من لم يسجد له . كأنه قيل : لم
امتنع عن الانتظام فى سلك الساجدين ، بل عما لا يليق بشأنى من السجود للفضول .
الله : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيَّكَ اللَّعْنَةُ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ .

« فاخرج منها ، فاخرج من الجنة ، فاخرج من زمرة الملائكة ، فاخرج من السماء

« فإنك رجيم ، مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة ،

فالكلام من باب الكناية . وقيل : أى شيطان يرجم بالشهب وهو وعبد بالرجم
بها . فكأنه قيل : إن المانع لك عن السجود شقاوتك ، وسوء خاتمتك ، وبمدك عن
الخير ، لا شرف عنصرك الذى تزعمه .

وفى تفسير الرجيم بالمرجوم بالشهب إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار

عذب بها في الدنيا ، فهو كعابد النار يهاها وتحرقه .
« وإن عليك اللعنة ، الإبعاد على سبيل السخط وذلك انقطاع عن قبول فيضه
تعالى وتوفيقه سبحانه ، ومن الإنسان دعاء بذلك . والظاهر أن المراد لعنة الله تعالى
لقوله سبحانه (وإن عليك لعنتي) .

« إلى يوم الدين » ، إلى يوم الجزاء ، وفيه أشعار بتأخير جزائه إليه . وإن اللعنة
مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ . وجعل ذلك غاية أمد
اللعنة قيل ليس لأنها تنقطع هنا لك ، بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من
أفانين العذاب : فتصير هي كالزائل . وقال بعضهم : إن المراد باللعنة لعن الخلائق له
وذلك منقطع إذا نفخ في الصور وجاء يوم الدين ، دون لعن الله تعالى له وإبعاده
إياه فإنه متصل إلى الأبد .

إبليس : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .
« رب فأظرنني ، رب إذ جعلتني رجياً فأمهاني وأخرني ولا تمتني .
« إلى يوم يبعثون » ، أي آدم عليه السلام وذريته للجزاء وأراد بذلك أن يجد
فسحة لا غوائهم ويأخذ منهم ثأره . قيل : ولينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث
وكانه عليه اللعنة طلب تأخير موته لذلك ، ولم يكتف بما أشار إليه سبحانه في التغيي
من التأخير ، لما أنه يمكن كون تأخير العقوبة كسائر من أخرت عقوباتهم إلى الآخرة
من الكفرة .

الله : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .
أي من جماعتهم ومنظم في سلوكهم . أي أنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً
حسبما تقتضيه حكمة التكوين .

« إلى يوم الوقت المعلوم » ، وهو وقت النفخة الأولى ووصفه بالمعلوم إما على معنى
أن الله تعالى استأثر بعلمه ، أو على معنى معلوم حاله وأنه يصعق فيه من في السماوات
ومن في الأرض إلا من شاء الله . وقال آخرون : إنه عليه اللعنة أعطى مسئوله كلاً ،

وليس إلا البقاء إلى وقت النفخة الأولى ، وهو آخر أيام التكليف . والوقت المشارف للشيء المتصل به معدود منه ، فأول يوم الدين وأول يوم البعث كأنه من ذلك الوقت .
إبليس : ربِّ بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين .
إلا عبادك منهم المخلصين .

« ربِّ بما أغويتني ، بسبب إغوائك إياي ، بما أضللتني .
« لأزيننَّ ، أى أقسم لأزيننَّ .
« لهم ، أى لذريته . لأزيننَّ لهم فعل المعاصي .
« في الأرض ، لأزيننَّ لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور . والمعنى لأحسن الدنيا وأزيننها لهم حتى يشتغلوا بها عن الآخرة .
« ولاغوينهم ، ولاضلنهم ، ولاجعلناهم شراراً .
« أجمعين ، أى كلهم فهو مجرد الإحاطة هنا .
« إلا عبادك منهم المخلصين ، أى الذين أخلصتهم اطاعتك وطهرتهم من كل ما ينافي ذلك .

الله : هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ . وَنَزَّلْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر من ٣٢ إلى ٤٨) .

« هذا صراط ، الاخلاص طريق .
« على ، حق على لا بد أن أراعيه ، أوجبته على نفسي .
« مستقيم ، لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره .
أو على معنى أن الاخلاص طريق يؤدي إلى الوصول إلى ، من غير اعوجاج وضلال

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، أى تسلط وتصرف بالاغواء . والمراد بباد العموم ، ويكون الكلام تكديبا للبايعون فيما أومأ أن له سلطانا على من ليس بلص من عباده سبحانه ، فإن منتهى قدرته أن يغرمهم ، ولا يقدر على جبرهم على اعه كما قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فحاصل نى أن من اتبعك ليس لك عليهم سلطان وقهر بل أطاعوك فى الاغواء واتبعوك وه اختيارهم .

« إلا من اتبعك من الغاوين ، إلا من أطاعك واتبع خطواتك من الضالين .
« وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، ولا يخفى ما فى جعل جهنم موعدا لهم من التهكم لاستعارة فكأنهم كانوا على ميعاد ، وفيه أيضاً إشارة إلى أن ما أعد لهم فيها مما يوصف فى الفظاعة .

« لها سبعة أبواب ، أى سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة لكل باب منهم ، من الاتباع والغواء .
« جزء مقسوم ، فريق معين مفروز من غيره حسبما يقتضيه استعدادهم .
« إن المتقين ، إن الذين اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب تكفرها سلوات وغيرها .
« فى جنات وعيون ، كل منهم فى جنات عظيمة أعدت له ، وعيون عظيمة مدت له خصيصاً

« ادخلوها ، أمر لهم بالدخول من قبله تعالى .
« بسلام ، أى سالمين من الآفة والزوال ، أو مسلما عليكم .
« آمنين ، الأمن من زوال ذلك فى الاستقبال .
« ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، أى حقد .
« إنخوانا ، طهر الله تعالى قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع سبحانه منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب .

« على سرر ، إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة تامة .
« متقاربين ، متساوين في التواصل والتزاور . وهو إشارة إلى أنهم يجتمعون
ويتنادمون .

« لا يسهم فيها ، أى فى تلك الجنات .
« نصب ، تعجب ما ، إما بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبهم من السعى فى تحصيل
مالا بد لهم منه ، لحصول كل ما يشتهونه من غير مزاوله عمل أصلا ، وإما بأن
لا يعترهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكامل قوتهم .
« وما هم منها بمخرجين ، أى هم خالدون فيها .

كيف أسجد المخلوق ١٤

ودار الحوار . . .
إبليس : « أسجد لمن خلقت طيناً ١٤ .
« أسجد لمن خلقت ، كيف أسجد للمخلوق ، والسجود إنما هو للخالق تعالى مجده ؟
« طيناً » أسجد له وهو من طين ، وأحمله طين ؟ .
وفيه تحقير له عليه السلام — وحاشاه — يجعله نفس ما كان عليه لم تزل عنه
تلك الذلة .

ثم قال اللعين بعد طرده من المحل الأعلى ولعنه واستنظاره وإنظاره .

لأهلكنهم ١١

إبليس : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة
لأحتكن ذريته إلا قليلاً .
« أرأيتك هذا الذى كرمت على ، أخبرنى عن هذا الذى كرمته على ، لم كرمته
على ، وأنا أكرم منه ١٤ .

وأيا كان فاسم الإشارة للتحقير . والمراد من التكريم التفضيل ،
« لئن أخرتن إلى يوم القيامة » لئن أبقيتني حيا ، أو أخرت موتي إلى يوم البعث
« لاحتكن ذريته » لاستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم : حنك الدابة
واحتنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به . أو لاسأصلنهم وأهلكنهم
بالاغواء من قولهم : احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها وجرد ما عليها .

« إلا قليلا » منهم ، وهم العباد المخلصون ، الذين جاء استثنائهم في آية أخرى .
وعلم اللعين تسنى هذا المطلب له حتى ذكره مؤكدا ، إما بواسطة التلقين من
الملائكة سماعا وقد أخبرهم الله تعالى به ، أو رآه في اللوح المحفوظ ، أو بواسطة
استنباطه من قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) مع تقرير الله تعالى
له ، أو بالفراسة لما رأى فيه من قوة الوهم والشهوة والغضب المقتضية لذلك .

الله : اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً
مَوْفُورًا . وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتِطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ
عَلَيْهِمْ بِخَيْبِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا . (الاسراء ٦١ إلى ٦٥) .

« اذهب » ليس المراد به حقيقة الأمر بالذهاب ضد المجيء ، بل المراد تخليته
وما سولته نفسه ، إهانة له ، كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد .

« فمن تبعك منهم » وضل عن الحق .

« فإن جهنم جزاؤكم » أي جزاؤك وجزاؤهم ، فغلب المخاطب على الغائب
رعاية لحق المتبوعة .

« جزاء موفورا » أي مكمل لا يدخر منه شيء .

« واستغفر » أي استخف ، يقال استغفره إذا استخفه فخدعه وأوقعه فيما أراد .

منه . والمراد من الأمر التهديد وكذا من الأوامر الآتية ، ويمنع من إرادة الحقيقة .

« أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء .

« من استطعت » أى الذى استطعت أن تستغفره .

« منهم » من ذرية آدم عليه السلام .

« بصوتك » أى بدعائك إلى معصية الله تعالى ووسوستك . وعبر عن الدعاء بالصوت تحقيرا له حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمار . وعن مجاهد تفسيره بالغناء والمزامير واللهو والباطل .

« وأجلب عليهم » أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح . وأجلب على العدو : جمع له الخيل .

« بخيلك ورجلك » والخيل يطلق على الأفراس حقيقة وعلى الفرسان مجازا وهو المراد هنا . والرجل بمعنى راجل ، يقال فلان يمشى رجلا أى غير راكب . فعنى (بخيلك ورجلك) أى بفرسانك ومشاتك . فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله فهو من رجل إبليس .

« وشاركهم فى الأموال » يحملهم على كسبها بما لا ينبغى وصرفا فيما لا ينبغى . « والأولاد » بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة ، وارتكاب ما لا يرضى الله تعالى فيهم .

« وعدهم » المواعيد الباطلة كشفاة الآلهة ، ونفع الأنساب الشريفة من لم يطلع الله تعالى أصلا ، وعدم خلود أحد فى النار لمنافاة ذلك عظم الرحمة ، وطول أمل البقاء فى الدنيا . ومن الوعد الكاذب وعده إياهم أنهم إذا ماتوا لا يبعثون ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة .

« وما يمدهم الشيطان إلا غرورا » اعتراض لبيان حاله للناس ، والاشعار بعملية شيطنته للغرور ، وهو تزوين الخطأ بما يوهم أنه صواب . وذكر فى سبب كون وعد الشيطان غرور الا غير أنه إنما يدعو إلى أحد ثلاثة

مور : قضاء الشهوة . وإمضاء الغضب . وطلب الرياسة والرفعة . ولا يدعو البتة إلى معرفة الله تعالى وخدمته . وتلك الأشياء الثلاثة ليست لذائذ في الحقيقة بل دفع آلام ، وإن سلم أنها لذائذ لكنها خسيسة يشترك فيها الناقص والكامل ، بل الإنسان والكلب ومع ذلك هي وشيكة الزوال ، ولا تحصل إلا بمناعب كثيرة ، ومشاق عظيمة ويتبعها الموت والحرم ، واشتغال البال بالخوف من زوالها ، والحرص على بقائها .

ولذات البطن والفرج منها لا تتم إلا بمزاولة رطوبات متعفنة مستفجرة ، فتزوين ذلك لا يكاد يكون إلا بما هو أكذب من دعوى اجتماع النقيضين ، وهو الغرور . « إن عبادي ، الاضافة للتعظيم ، فتدل على تخصيص العباد بالخلصين ، كما وقع التصريح به في الآية الأخرى ، ولقرينة كون الله تعالى وكيلا لهم ، يحميمهم من شر الشيطان ، فإن من هو كذلك لا يكون إلا عبداً مكرماً مختصاً به تعالى . وكثيراً ما يقال لمن يستولي عليه حب شيء فينقاد له عبد ذلك الشيء ، ومنه عبد الدينار والدرهم وعبد بطنه ، ومن هنا يقال لمن يتبع الشيطان عبد الشيطان . « ليس لك عليهم سلطان ، أي تسلط وقدرة على إغوائهم .

« وكفى بربك وكيلا ، لهم ينوكلون عليه جل وعلا ، ويستمدون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك ، فيحميهم سبحانه منه . وكفى بربك أيها الإنسان وكيلا ، فهو جل جلاله يدفع كيد الشيطان ، ويحفظ منه .

واستدل بالآية على أن المعصوم من عصمه الله تعالى ، وإن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال ، وإلا لقليل وكفى بالإنسان وكيلا لنفسه .

فبمزتك . . لأغوينهم !

ودار الحوار . . .

الله : يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيْ أُسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ؟

(م ٤ - آدم)

« يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ، هذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه عليه السلام معنى بخلقه فإن من شأن المعنى به أن يعمل باليدين ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب وأم ، وكونه جسماً صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر ، وكونه أهلاً لأن يقاضى عليه ما لا يقاضى على غيره ، إلى غير ذلك من مزايا الأدمية . وعند بعض آخر منهم اليد بمعنى القدرة ؟ والثنية للتأكيد الدال على مزيد قدرته تعالى ، لأنها ترد لمجرد التكرير .

والسلف يقولون : اليد مفردة وغير مفردة ثابتة لله عز وجل على المعنى اللائق به سبحانه ، ولا يقولون في مثل هذا الموضع إنها بمعنى القدرة أو النعمة .
كأنه قيل : ما منعك أن تعظم بالسجود من هو أهل للتعظيم للعناية الربانية التي حفت إيجاده ؟ .

هذا وعندى أن خلق آدم بيدي الله تعالى ، يشير إلى معنى عظيم يختص الله تعالى به آدم عليه السلام . وهو أن الله تعالى خلقه بنفسه مباشرة من غير استعمال الوسائط . من ملائكة وغيرها . فإن ذريته عليه السلام يبعث الله ملائكة فتنفخ الروح في الأرحام ليحيي بها الأجنة ، وليس كذلك آدم عليه السلام فإن الله خلق جسده بنفسه ونفخ فيه الروح بنفسه بغير وسائط ، وهذا بعض ما تشير إليه الآية في قوله سبحانه « بيدي » أي باشرت خلقه بنفسى . والأخبار الصحيحة ظاهرة في أن ذلك وصف تعظيم . جاء عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : خلق الله تعالى أربعاً بيده العرش . وجنات عدن . والقلم . وآدم . ثم قال لكل شيء مكان .

« استكبرت ، أ تكبرت من غير استحقاق ؟ .

« أم كنت من العالين ، أو كنت مستحقاً للعلو فائقاً فيه ؟ .

« أو أحدث لك الاستكبار ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ؟ .

وقيل إن العالين صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون . مستغرقون بملاحظة

جمال الله تعالى وجلاله ، لا يعلم أحدكم أن الله تعالى خالق شيء ، لم يؤمروا بالسجود لأدم عليه السلام .

إبليس : أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين .
و أنا خير منه ، قيل هو جواب عن الاستفهام الآخر يؤدي يؤدي أنه كذلك
أى هو من العالين على الوجه الأول . وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً في
شيء على الوجه الثاني .

« خلقتني من نارٍ وخلقته من طين » ذكر النوعين تنبيهاً على أن المماثلة كافية
فضلاً عن الأفضلية ولهذا أبهم فصل وقابل وآثر (خلقتني وخلقته) دون أنا من
نار وهو من طين ليدل على أن المماثلة في المخلوقة مانعة فكيف إذا انضم إليها خيرية
المادة . وفيه تنبيه على أن الأمر كان أولى أن يستنكف فإنه أتى بالسجود حق الأمر .
الله : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
الْبَدِينِ .

« فَاخْرُجْ مِنْهَا » فَاخْرُجْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَاخْرُجْ مِنْ زَمْرَةِ الْمَلَائِكَةِ . وَقِيلَ : اخْرُجْ مِنَ
الْخَلْقَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا ، وَاَنْسَاخِ مِنْهَا ، وَالْأَمْرُ لِلتَّكْوِينِ .
وَكَانَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ يَفْخَرُ بِخَلْقِهِ ، فَغَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ ، فَاسْوَدَّ بَعْدَ مَا كَانَ أَيْضًا
وَقَبِحَ بَعْدَ مَا كَانَ حَسَنًا ، وَأَظْلَمَ بَعْدَ مَا كَانَ نُورَانِيًا .

« فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » تَعْلِيلُ الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ ، أَيْ مَطْرُودٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَكَرَامَةٍ .
فَالرَّجْمُ كَرَامَةٌ عَنِ الطَّرْدِ لِأَنَّ الْمَطْرُودَ يَرْجَمُ بِالْحِجَارَةِ . أَوْ شَيْطَانٌ : يَرْجَمُ بِالشَّيْبِ .
« وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي » أَيْ إِبْعَادِي عَنِ الرَّحْمَةِ . وَإِنْ أُرِيدَ كُلُّ لَعْنَةٍ فَذَلِكَ لَمَّا أَنَّ
لَعْنَةَ اللَّاَعْنِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالتَّنَّاقِينَ أَيْضًا مِنْ جَهَنَّمَ تَعَالَى ، مِنْهُمْ يَدْعُونَ عَلَيْهِ بِلَعْنَةِ
اللَّهِ تَعَالَى وَإِبْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ :

« إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » يَوْمُ الْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ .
وَقَبِهُ إِذْنَانِ بَأَنَّ اللَّعْنَةَ مَعَ كَمَالِ فُضَاءَتِهَا لَيْسَتْ كَافِيَةً فِي جَزَاءِ جُنَايَتِهِ ، بَلْ هِيَ

انموزج ما سيلقاه مستمرا إلى ذلك اليوم . لكن لا على أنها تنقطع يومئذ بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأقانيں العقاب ما تنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل .
إبليس : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون .

« رب فأنظرني ، أى أمهلنى وأخرنى .

« إلى يوم يبعثون ، أى آدم وذريته للجزاء بعد الموت وهو وقت النفخة الثانية .
وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من اغوائهم ، يأخذ منهم ثاره ، وينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث .

الله : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الرُّقَّتِ الْمَعْلُومِ .
« فإنك من المنظرين ، إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين .

« إلى يوم الوقت المعلوم ، الذى قدرته وعينته لفناء الخلائق ، وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المستول .

إبليس : فبمزتك لأغوينهم أجمعين . «إلا عبادك منهم المخلصين .
« فبمزتك ، فأقسم بمزتك . قسم بسلطان الله عز وجل وقهره ، وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة .

« لأغوينهم أجمعين ، أى أفراد هذا النوع بتزيين المعاصى لهم .
« إلا عبادك منهم المخلصين ، وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الغواية . وقرىء (المخلصين) على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى .

الله : فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص ٧٥ إلى ٨٥) .
« فالحق ، فالحق قسمى . أو فالحق أنا . أو أنا الحق .
« والحق أقول ، ولا أقول إلا الحق .

على أن الحق إما اسمه تعالى ، أو نقيض الباطل ، عظمه تعالى بإقسامه به .
« لاملآن جهنم » ، والله لاملآن جهنم .
« منك » أى من جنسك من الشياطين .
« وعن تبعك » فى الفواية والضلالة .
« منهم » من ذرية آدم عليه السلام .
« أجمعين » لاملآن جهنم من المتبرعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً .
لاملآنها من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لانفاوت فى ذلك بين ناس وناس
بعد وجود الاتباع منهم ، من أولاد الأنبياء وغيرهم .

أخرج منها

الشق المفسرون فرقا فى معنى قوله سبحانه .
« أَخْرَجَ مِنْهَا » . . . ، فن قائل هى بمعنى أخرج من الجنة ، ومن قائل أخرج
من السماء ، ومن قائل أخرج من الملائكة ؛ ومن قائل أخرج من رحمتى . وعندى أن
هذا خلاف فيما لا خلاف وانشقاق فيما لا انشقاق .
والحق الذى يميل إليه قلبى أن إبليس خرج من كل هذه الأشياء عندما قال له الله
سبحانه « أخرج منها » لأن الله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون . إنه سبحانه عندما
قال « أخرج » فقد خرج إبليس على الفور ، لأن الإرادة الإلهية مرتبطة بقوله
سبحانه ، وما دام الله قد قال له أخرج فقد أراد منه الخروج ، فيتحتم خروج إبليس
على الفور .

وحين قال سبحانه « منها » فإنما يعنى سبحانه إخراجهم من رحمتى ، ومتى خرج من
رحمتى وقع فى لعنته ، لأنه لن يخرج من ملكه سبحانه ، فإخراجه من الرحمة يستلزم
دخوله فى اللعنة . ومتى خرج من الرحمة فقد خرج من زمرة الملائكة بالتبعية ، لأنه
خرج من الصفة التى خلق منها الملائكة ، ودخل إلى صفة أخرى .

ومتى خرج من زمرة الملائكة فقد خرج من الجنة ، لأن الجنة حل للملائكة حرام على الشياطين . والجنة رحمة الله برحم بها من يشاء من عباده وإبليس قد خرج من الرحمة .

، ومتى خرج من الجنة فقد خرج من السماء ، لأن السماء مسكن الملائكة وهو لم يعد ملاكاً .

ومتى خرج من السماء فقد أصبح مطلوباً منه ، وتحتم عليه أن يهبط منها إلى الأرض ، وأن يتخذها مأوى له بدلا من السماء .

وهذا ما كان فعلا ، وما حدث بعد ذلك ، عندما أمر الله تعالى الجميع ، آدم وزوجه وإبليس بالهبوط إلى الأرض .

وبذلك تنحل العقدة ، وبذهب الخلاف ، وتظهر الحقيقة في أمر إبليس .

أنا خير منه

كان إبليس قبل أن ينزل به البلاء ، مليكا كبيرا مقرباً ، يعلم من الله ما لا يعلم كثير من الملائكة .

ثم جاءت الفتنه من الأنا ، الحبيثة المدمرة ، هناك هوى ، وغوى ، وهبط وانحدر انحدارا كبيرا . ولم ينفعه عليه الذي كان عليه ، ولا قربه من الله ، ولا طاعته قبل ذلك لله .

وكانت فتنة إبليس عميقة . . وترجع إلى سببين رئيسيين .

أولهما : أنه تعود ألا يسجد لإلا لله ، واستقر في قلبه أن السجود لغير الله شرك وكفر به سبحانه . وعاش ما عاش وهو من الملائكة المقربين ، يعبد الله وحده ويسجد لله وحده .

ثم جاءت إليه الفتنة من هنا . جاءت بشيء غير ما ألف وتعود . جاءت بأمره أن يسجد لخلق . . . أسجد لمن خلقت طيناً ؟ ، كيف إذا يكون هذا ؟ .

كيف يأمر الله إبليس بالسجود لآدم وآدم مخلوق وليس بخالق ، وآدم عبد مصنوع وليس لها صانعاً ؟ . أكان ما كان عليه إبليس من السجود لله وحده من قبل باطلاً ؟ أم أن هناك سراً فوق علم إبليس ؟ . ومن هنا نبئت الفتنة في قلبه . غاب عنه أن الله أن يأمر من شاء بما شاء ، ابتلاء لعباده أطيعون أم يعصون ما يؤمرون ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ولذلك اقتضت حكمة الله أن يختبرهم في الصفة التي هي الأصل الأصيل من صفاتهم ، صفة الطاعة المطلقة لله ، فأمرهم سبحانه بالسجود لآدم لينظر أطيعون ؟ . فأطاعوا جميعاً إلا إبليس أبى .

والثانية : أنه قام بنفس إبليس أنه خير من آدم ، وذلك بالمفاضلة التي أقامها بين عنصر آدم وعنصره . بين الطين والنار .

ورأى في نفسه أن النار أشرف من الطين وأرق وألطف وأسمى ، فلا ينبغي أن يسجد الأعلى للأدنى ولكن الأدنى للأعلى ، وأقام إفلسفته على هذا . ونطق بذلك وهو يحاور الله ، وسأفه كبره أن على رفضه للسجود .
« أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين » .

وقد أخطأ إبليس فيما ذهب إليه ، أخطأ لأنه عقد المقارنة بين جسم وجسم ، بين الطين والنار . وغفل عن شيء ، غفل عن العنصر الذي يمتاز به آدم عليه ، عن الروح التي هي من الله ، وفيها من صفات الله . وهذا هو سر امتياز آدم عليه وعلى الملائكة .

لقد مكث آدم جسداً لا حراك به ، ملق في الجنة ، لا وزن له في ذاته ، ولذلك لم يأمر الله إبليس ولا غيره من الملائكة أن يسجد لهذا الجسد في ذلك الطور ، طور الطين الذي لا روح فيه ، ولكن عندما نفخ الله فيه من روحه أوجب عليهم جميعاً السجود لآدم ، السجود للروح التي سرت في آدم ، لا لجسد آدم الذي ما كان إلا مظهراً لتلك الروح . وإلى ذلك يشير القرآن حيث يقول :

« فَإِذَا سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِي فَسَجَّدُوا لَهُ سَاجِدِينَ » ،

أى فإذا أتممت النفخ فيه من روحى ، فقد صار شينا أعلى منكم فينبغى عليكم جميعاً السجود له . السجود للروح التى هى من الله فى هذا الجسد .
لقد أخطأ إبليس خطأين .

خطأ حينما ظن أنه لا ينبغى السجود لغير الله ، ونسى بذلك أن الله هو الأمر وأنه يجب عليه أن يطيع .

وخطأ عندما فاضل بين نفسه وبين آدم على أساس المفاضلة بين الطين والنار ، ونسى أن السجود بنى على تشریف آدم بنفخ الله فيه من روحه ، وأن السجود كان لتلك الروح الإلهية التى وضعت فيه ، لا للجسد المخلوق من طين . وإنما كان جسد آدم حينئذ مرآة التجلى ، ومظهر الروح ، وعظمة الإبداع .

الملاك العظيم

ينقلب إلى شيطان رجيم ١١

عندما أبى إبليس واستكبر أن يسجد ، ورأى فى نفسه أنه خير من آدم ، أخرجه الله تعالى من رحمته .

ويأخرجه من رحمة الله ، انقلب على الفور ، وتحول من صورة الملاك العظيم إلى صورة الشيطان الرجيم .

وبعد أن كان جيلاً صار قبيحاً ، وبعد أن كان خيراً خالفاً صار شراً خالفاً . وبعد أن كان قريباً من الله صار بعيداً عن الله ، وبعد أن كان فى رحمة الله صار فى لعنة الله .

وكذلك تحول ظاهر إبليس من ملاك جميل إلى شيطان قبيح . وبلعن الله لإبليس صار ملعوناً من أهل السماء ملعوناً من أهل الأرض . وبعد أن كانت السماء مسكنه ، حرمت عليه السماء ، وأرسلت عليه وعلى ذريته . من بعد ذلك الشهب تمنعهم من دخولها كلها حاولوا ذلك .

إلا أنه رغم مسخه من صورة الملك إلى صورة الشيطان ، بقيت فيه صفات الملائكة ولكن على أبعاد ما عليه الملائكة .

وبيان ذلك أن الملك يسبح الله الليل والنهار ، وهو يكفر الله الليل والنهار .
والملك له القدرة على الطيران من الأرض إلى السماء ، وهو له هذه القدرة فيذهب يحاول استراق السمع من السماء ، إلا أن الشهب ترسل عليه فلا يستطيع .
والملك يستطيع أن يلم بقلب الإنسان ويوحى إليه بالخير ، والشيطان يستطيع أن يلم بقلب الإنسان كذلك ولكن ليوحى إليه بالشر . وهذا ما يسمى بالسواوس أى الأيحاء الخفى . وسمى الملائكة إلهاما وإلهام الشيطان وسواسا للتمييز .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن للشيطان لغة بابن آدم ، وللملك لغة ، فأما لغة الشيطان فأبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لغة الملك فأبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . (الترمذى) .

قال ابن العربي . . . إن الله خلق من كل زوجين اثنين ، فخلق آدمي والملك والشيطان ، وخلق العقل والشهوة ، وأمر آدمي ونهاه ، وركب فيه ماركب من هواه ، وحبال الشيطان الهوى ، ومنجاة الإنسان الإيثار للعقل وهو ضد الملك ، والشهوة جند الشيطان ، ولا يزالان يتنازعان ويتباريان ، والقدر من فوق فإذا نزلت العصمة غلب جند الملك وهو العقل ، وتبصر العبد فامتثل وأزدجر ، وإذا نزل الخذلان غلب جند الشيطان ، باستيلاء الشهوة وارتكاب المخالفة فهلك العبد ، فأمر الله على لسان رسوله العبد إذا وجد لغة الملك أن يحمد الله على ما وهبه من العصمة ، وإذا وجد الحالة الأخرى أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فإنه يجادله والله يعيذنا منه برحمته .

هذا ومن الصفات التي بقيت في الشيطان بعد مسخه ويشارك فيها الملائكة الذين

كان منهم صفة الاستتار عن أعيننا ، فهو يرانا ونحن لا نراه ، تماما كالملائكة ثرائنا ولا نراها . كل هذا لأنه يحمل صفات أصله ، ولكن تحولت فيه إلى الشر .
قال تعالى : « ... إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... »
(الأعراف ٢٧) ..

« إنه يراكم ، إن الشيطان يراكم يا بني آدم .
« هو وقبيله ، المراد بهم هنا جنوده من الجن .
وهكذا تحول إبليس إلى شر محض ، ولعنة خالصة .
وخرج من الجنة بأحقاده وآلامه وغيظه ، بسبب إباته السجود لآدم .
ومن هنا كان بغضه لآدم ، وكرهه لذريته ، لأنهم سبب بلائه ، وسبب خروجه
من مكانته التي كان عليها — وكان يقبه بسببها على الملائكة — إلى ما صار إليه من
صورة منكرة ذليلة ملمونة .

قال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » . (الكهف ٥٠) .
كان من الجن ، صار من الجن بالمسخ ، أى أن إبليس كان من الملائكة وأبى أن
يسجد فصار من الجن بسبب معصيته .

روى عن ابن عباس أن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ...
فراى أن له بذلك عظمة وشرقا على أهل السماء ، فوقع في نفسه كبر لم يعلم به أحد
إلا الله تعالى ، فلما أمر بالسجود ظهر كبره الذى في نفسه ، فلعننه الله تعالى إلى يوم
القيامة . وقيل : كان من الملائكة والجن قبيلة منهم .
« ففسق عن أمر ربه » فخرج عن طاعته سبحانه .
« أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني » أفنتخذونه وأولاده وأتباعه أولياء
مجاوزين عن إليهم ، وتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ١٩ .

والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد، فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة .

هذا والذي أميل إليه أن الآية تشير من طرف خفي إلى أن كل الشياطين من نسل إبليس ، لأنها تنمى على الأدميين اتخاذ ذريته أولياء من دون الله . وقد روى أنه أصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس . وهذا ما أميل إليه ، وهذا ما حدث بعد ذلك ، عندما هبطوا جميعا إلى الأرض . هبط آدم وحواء ليكرن منهما الناس كافرهم ومؤمنهم وهبط إبليس ليكون منه الجن كافرهم ومؤمنهم .
« وهم لكم عدو ، أى أعداء .
« بنس للظالمين بدلا ، بنس البذل من الله تعالى للظالمين إبليس وذريته .

وخلق منها زوجها

قال تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... » (النساء : ١) .

« الذى خلقكم من نفس واحدة ، هى آدم عليه السلام .
« وخلق منها زوجها ، وخلق من آدم زوجه حواء .
وقال « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ... » (الاعراف ١٨٩) .
« هو الذى خلقكم ، هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك أصلا .

« من نفس واحدة ، هو آدم عليه السلام على ما نص عليه الجمهور .
« وجعل منها ، أى من جنسها فن ابتدائية ، والمشهور أنها تبعية ، أى من جسدها ، لما يروى أنه سبحانه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام اليسرى .

«زوجها، وهي حواء .
 «ليسكن إليها ، أى ليستأنس بها ويطمئن إليها .
 «أى ليستأنس آدم بحواء ويطمئن آدم إلى حواء .
 وقال «تَخْلَقْتُكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْتُ مِنْهَا رَوْجَهَا ...»
 (الزمر ٦) .

«خلقكم من نفس واحدة ، المراد بالنفس آدم عليه السلام .
 «ثم جعل منها زوجها ، أى حواء ، فإنها خلقت من قصيرى ضلعه عليه السلام
 اليسرى ، وهى أسفل الأخلاع ، على معنى أنها خلقت من بعضها ، أو خلقت منها
 كلها ، وخلق الله تعالى لأدم مكانها ، وقد تضمنت الآية ثلاث آيات ، خلق آدم عليه
 السلام بلا أب وأم ، وخلق حواء من قصيراه ، وخلق ذريته التى لا يحصى عددها
 إلا الله عز وجل .

وقال «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ...»
 (الحجرات ١٣) .

«يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، من آدم وحواء عليهما السلام ،
 فالسكل سواء فى ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب .

وقال «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، (الليل ٣) .
 «وما خلق الذكر والأنثى ، أى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفي الذكر
 والأنثى من الحيوان المتصف بذلك ، وقيل من بنى آدم .

وقيل المراد بالذكر آدم عليه السلام وبالأنثى حواء رضى الله تعالى عنها .
 وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع
 أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا
 بالنساء . (البخارى) .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير ، أو يسكت ، واستوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيراً . (مسلم) .

قالوا : وفيه دليل لما يقوله الفقهاء ، أو بعضهم ، أن حواء خلقت من ضلع آدم ، قال الله تعالى « خلقتكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أنها خلقت من ضلع . وفي هذا الحديث ملاطفة للنساء ، والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن ، واحتمال ضعف عقولهن ، وكراهة طلاقهن ، بلا سبب وأنه لا يطمع باستقامتها .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المرأة كالضلع ، إذا ذهبت تقيمتها كسرتها ، وإن تركتها استمعت بها ، وفيها عوج . (مسلم) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المرأة خلقت من ضلع ، إن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمعت بها استمعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمتها كسرتها وكسرهما طلاقهما . (مسلم) .

هذا . . . ومن هذه النصوص جميعاً ، يقين لنا أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، وأنها جاءت عوجاء في عواطفها ومشاعرها ، تحاكي في ذلك صفات الضلع الأعوج الذي خلقت منه .

هذا وإليك ما ورد في الكتاب المقدس ، عن كيفية خلق حواء ، نورده هنا لأنه لا يصادم ما جاء بالقرآن والسنة ، بل يؤيده ويفصله :

« فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام . فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحى . وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم . فقال آدم هذه الآن عظام من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأنها من امرأ أخذت .

لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا ينجعلان . (التكوين . الإصحاح الثاني) .
وكذلك خلق الله حواء من ضلع من ضلوع آدم ، فجاءته تسعى في أحسن صورة تتصور للأنثى . إنها النموذج الأول للأنثى بحماتها وكألاها ولطفها ورشاقتها . إنها شيء صنعه الله تعالى بيديه وصبه في أحسن صورة .

وكان حجم حواء هو حجم آدم ، ستون ذراعاً في السماء ، ولكن تصغره في الحجم قليلاً ، بنسبة ما تصغر الأنثى عن الذكر دائماً .
وكانت حواء عارية تماماً كما كان آدم عارياً تماماً ، ونظر إليها ونظرت إليه . ولكنها لا ترى منه ما ترى الأنثى من الذكر ، ولا يرى منها ما يرى الذكر من الأنثى . كانا عريانين ، إلا أنه لا يوجد بينهما الشعور بالشهوة ، شأنهم في ذلك شأن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، يلعب ذكرهم مع أئنهم ، ولكن لا يشعرون بالشعور الجنسي فيما بينهم .

جمال حواء

سميت حواء بحواء لأنها أم لكل حي ، فهي أم البشر ، وأم الخلق ، والمرأة الأولى ، وأصل الشجرة الأدمية المباركة .
فهي من كل إنسان بمثابة أمه ، ومن حق كل إنسان أن يعرف الصورة التي كانت عليها حواء .

والشيء الذي يقطع أنها كانت أجمل أنثى وجدت إلى يوم القيامة ، أنها زوجة أول إنسان ، وأنها فطرت على أحسن صورة كما فطر آدم في أحسن تقويم .
وليس معنى الأحاديث التي تشير إلى أفضلية بعض النساء أنهن أجمل من حواء ، كلابل هي أجمل من بناتها جميعاً إلى يوم القيامة . لأن الشيء الذي خلقه الله بيديه وجعله أصلاً للجنس كله ، لا بد وأن يكون أجمل من الشيء الذي جاء عن طريق

التناسل والتسلسل . فالأفضلية شيء والجمال شيء آخر . فمن النساء اللاتي جنن من بعد
حواء من هن أفضل من أمهن الأولى ، ولكن المقطوع به أنهن لسن أجمل منها .
عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خيرُ نساءِها مريمُ وخيرُ
نساءِها خديجة . (البخاري) .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حسبك من
نساء العالمين : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ،
وآسية امرأة فرعون . (الترمذي) ،

وهذا يشير إلى أفضلية هاتيك النسوة رضي الله عنهن أجمعين ، فمن سيدات
نساء الدنيا وأفضلهن على الإطلاق . ولكنهن رغم فضلهن الذي شهد عليه النبي صلى
الله عليه وسلم لسن أجمل سيدات الدنيا ، ولا أجمل من حواء أمهن ، بل هي أجمل
منهن وأجمل من بناتها جميعاً ، لأن الحسن شيء والفضل شيء آخر ، والنقوى شيء
وجمال الصورة شيء آخر كذلك .

فمن جمال حواء الذي تتفوق به على بناتها ، أنها أكبر منهن حجماً ، فهي أنثى لا جل .
بلغ ارتفاعه ستين ذراعاً ، فهي على الحجم الذي يناسب ذلك الارتفاع ، ويستتبع
ذلك ضخامة أعضائها جميعاً ، في تناسب وانسجام تام .

وهي جسم سليم من الأمراض لم يذق طعم السقم أبداً .
وهي على أقوى درجة من القوة البشرية النسوية ، لأنها فتاة بكر لم يمسهما بشر
ولم يمسهما حزن ولا هم ولا غم .

وهي شيء جعل الله تعالى فيه سر الصنعة الأولى لبنات جنسها كلهن . فل تسكون
إلا على أحسن صورة ؟ .

وقد فكرت طويلاً في الصورة التي كانت عليها أمنا حواء عند خلقها لأول مرة ،
فوجدت أنها كانت شيئاً غير بناتها ، شيئاً جميلاً جداً ، فوق ما تتصور وما يدور
بأذهاننا .

وقلت في نفسي إذا كان طول آدم ستين ذراعاً وعمره ألف عام ، وهذا ما سجلته الأحاديث الصحاح الموثوقة في هذا الكتاب ، فمن البديهي أن حواء على مثل هذا الطول ، إلا أنها تقل عنه بما ينبغي أن تنقصه الأنثى عن الذكر في الخلقة الطبيعية ، وكذلك ستعيش حواء شيئاً في حدود الألف سنة كما عاش آدم ، ربما أقل وربما أكثر فهذا شئ ، استأثر به الله تعالى ، ولكن المهم أنها عمرت طويلاً كما عمر آدم .

وامرأة هذا شأنها من ضخامة الخلقة وطول العمر ، لا بد أنها جبلت وخلقت على أسلوب يناسب ألف سنة من الحياة ، وستين ذراعاً من العلو .

إنها إذا خلقت في قوة الشباب ... وشباب امرأة لم يصحها داء ، ولم ينزل بها بلاء في مثل ذلك الحجم لا بد وأن يكون المثل الأعلى للشباب والصحة والقوة .

ثم أرشدني الحديث الآتي إلى الصورة التي كانت عليها أم الخلق :

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحييتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فشكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن . (البخاري) .

« فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، والمعنى أن كل إنسان يدخله الله الجنة يجعله الله على صورة آدم في الحسن والطول وغير ذلك . ويستنبط من ذلك كذلك ، أن كل من تدخل الجنة من النساء تدخلها على صورة حواء ، لأنه لا يعقل أن تدخل الأنثى على صورة ذكر ، وإنما المعقول أن تدخل الأنثى على صورة الأنثى .

وأن الصورة التي تدخل عليها المرأة الجنة هي صورة أمها الأولى كما أن الصورة التي يدخل عليها الرجل الجنة هي صورة أبيه الأول .

هذا ومن ناحية أخرى تنكشف لنا حقيقة كبرى إذا تأملنا :

« فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن ، وهذا من جوامع الكلم الذي يتميز به

كلامه صلى الله عليه وسلم . والمعنى أنه بعد خلق آدم وحواء لم يزل الخلق يتقص في الصورة والحياة حتى صار الناس إلى ما هم عليه من صغر الحجم وقصر العمر ، وأن هذا النقص سيستمر حتى تقوم الساعة على قنাম الناس ، أى قصر وصغار كما ورد في الأخبار .

عن ابن مسعود سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقولُ : من شرارِ الناس من تُدرِكهمُ السَّاعةُ وهمُ أحياءُ . (البخارى) .

أدركنا إذا أن المرأة الصالحة تدخل الجنة على صورة أمها حواء . فإذا علمنا أن المرأة من نساء الدنيا إذا دخلت الجنة كانت أجمل من الحور العين كما ورد في الأخبار الصحاح .

علمنا كذلك أن الصورة التى ستدخل به نساء الدنيا إلى الجنة ، أنهن يكن أجمل من الحور العين . فإذا كانت هذه الصورة الأخيرة هى نفسها صورة حواء ، فعنى ذلك أن حواء حين خلقت كانت أجمل من الحور العين !! .

فإذا أمكنك أن تتصور ما عليه الحور من جمال ، ولن تستطيع ، أمكنك أن تتصور ما كانت عليه حواء من جمال ولن تستطيع . . . لأنها كانت أعلى وأحلى من الحور !! .

ومكذا . . . فافت حواء كل أنثى فى جمالها !!

أسكن أنت وزوجك الجنة

قال تعالى : وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا . . . (البقرة ٣٥) .

د . . . وبعد أن خلق الله تعالى حواء ليسكن إليها آدم ويأنس إليها .
« قلنا ، قال الله تعالى لآدم وحواء .

(م ٥ — آدم)

« يا آدم ، تصدير الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلحق إليه من الأمر ، وتحريكه لما يخاطب به ، إذهو من الأمور التي ينبغي أن يتوجه إليها .
« اسكن ، أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن ، لا من السكون ترك الحركة .
« أنت وزوجك ، الأمر بالإباحة أو للوجوب . اتخذ أنت وحواء من الجنة مسكنا لكما ، استمتعا معا ، واستأنس بها ولتستأنس بك في ربوعها .
« الجنة ، هي دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة ، لأنها المتبادرة عند الإطلاق ولسبق ذكرها في السورة .

وفي الحديث « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة الاخطيئة أيسكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ... » (مسلم) .
« تزلف لهم الجنة ، تقرب ، كما قال الله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين)
أى قربت .

وهذا الحديث يشير كما يشير غيره من الأخبار إلى أن الجنة هي جنة الثواب ، التي وعد الرحمن عباده بالغيب .

« وكلا منها رغدا حيث شئما ، أى من مطاعمها ، من ثمار وغيرها ، فلم يحظر عليهما شئنا إلا ما سياتى ، والرغد هو الهنى الذى لا عناء فيه ، أو الواسع . كانوا فى رزق واسع كثير . من أى مكان من الجنة شئما .

وقال تعالى « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ... » (الأعراف ١٩) .

« ويا آدم ، أى قال يا إبليس اخرج ، ويا آدم اسكن لأن ذلك فى مقام الاستئناف . واسكن ، من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار .
أنت وزوجك الجنة ، اتخذا من الجنة مسكنا لكما .

« فكللا من حيث شئنا ، لتعظيم التشريف ، والإيذان بقساويهما في مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له عليه السلام في حق الأكل .
وكذلك أباح الله تعالى لأدم وحواء سكنى الجنة كلها ، والتمتع بما كلفها ومشاربها ، وقصورها وأنهارها ، والتلذذ بما فيها من لذات ونعيم .

ولا تقربا هذه الشجرة

أباح الله لأدم وحواء الأكل من ثمر أشجار الجنة كلها . وحذرهم من الاقتراب من هذه الشجرة ، وعينها لهم ، وحددها ، وحذرهم من الأكل منها ، ونهاهم عن مجرد الاقتراب منها ، لأن من حام حول الحى يوشك أن يقع فيه .
وهذه الشجرة هي شجرة الخلد كما سماها إبليس ، وسر النهي عنها سيظهر فيما بعد .
قال تعالى : ... وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، (البقرة ٣٥) .

« ولا تقربا هذه الشجرة ، ظاهر هذا النهى التحريم ، والمنهى عنه الأكل من الشجرة ، إلا أنه سبحانه نهى عن قربانها مبالغة ، ولهذا جعل جل شأنه العصيان المرتب على الأكل مرتبا عليه . ووقع خلاف في هذه الشجرة فقيل وقيل ، والأولى عدم القطع والتعيين ، كما أن الله تعالى لم يعينها باسمها في الآية ، ولا أرى ثمرة في تعيين هذه الشجرة . والشجر ما له ساق أو كل ما تفرع له أغصان وعيدان .
« فتكونا من الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية ، أو تقصوا حظوظهم بمباشرة ما يخل بالكرامة والنعيم ، أو تعدوا حدود الله تعالى .
هذا وينبغي العلم أن هذه الشجرة ليست في حجم أشجار الدنيا ، ولكنها في حجم أشجار الجنة ، لأنها شجرة من أشجار الجنة . وإليك بعض أوصاف لأشجار الجنة لتعلم منها إلى أى مدى بلغت هذه الشجرة من الضخامة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة لشجرة يسير الراكب ،
الجواد المضمّر السريع ، مائة عام ما يقطعها . (البخارى) .
« الجواد » هو الفرس البين الجودة السريع الجرى .
« المضمرة » هو الذى يتمرن أياما أو أشهر على الثعب حتى يخف لونه ويشدد
عصبه .

فانظر بعد ذلك كم كانت هذه الشجرة من الضخامة ، إذا كانت أشجار الجنة
بحيث يجرى الحصان السريع فيها مائة عام لا يقطعها ١٩ .
وقال ... وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِينَ . .
(الأعراف ١٩) .

وهى نفس ما ورد فى سورة البقرة .
لقد كانت شجرة ما من أشجار الجنة ، نهاهما ربهما عن الاقتراب منها .

إن هذا عدوك ولزوجك

قال تعالى « فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَمَا
مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . (طه ١١٧) .
« قلنا » عقيب إباء إبليس السجود لآدم وإظهاره لذلك ، اعتناء بنصح آدم عليه
السلام .

« يا آدم » ، يا آدم ، يا حواء .

« إن هذا » ، إن هذا الشيطان ، إن هذا الذى رأيت منه ما رأيت .

« عدوك ولزوجك » ، ولا يخفى ما فى التعبير بزوجك دون حواء من مزيد
التنفير والتحذير منه . واختلف فى اسبب العداوة فقليل مجرد الحسد وقيل : كونه
شيخا جاهلا وكون آدم عليه السلام شابا طالما ، وقيل : تنافى الأصلين فإن اللعين
خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين وحواء خلقت منه ، وقيل وقيل ...

والذى أميل إليه أن سبب العداوة هو أن آدم عليه السلام هو سبب بلية إبليس ، وأن خلقه وأمر الملائكة بالسجود له هو سبب فتنه . وكانت تلك الفتنة سبباً في لعن إبليس وطرده من الجنة وشقائه إلى الأبد . فسخط إبليس على ربه حين لعنه وطرده وسخط على آدم حين كان هو سبب هذه المصيبة التى نزلت به .

أما سخطه على ربه فظهر في كفره به سبحانه ، واعتراضه على قضائه ، ومحاولته إقامة الدليل على عدم استحقاق آدم لهذا التكريم كله . وهذا هو أقصى ما يستطيع أن يفعله مع الله ، لأنه يعلم تماماً أن الله قوى وأنه إن شاء محقه في أقل من لمح البصر فأقصى ما يستطيعه مع الله هو أن يكفر به ويعترض على قضائه ، وهذا هو أسلوب الكفار بالله تعالى دائماً .

أما سخطه على آدم ، فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ، لأن آدم مخلوق مثله ، ضعيف مثله ، فيمكن إذا أن ينتقم منه ، لأن المماثلة في الضعف قائمة بينهما ، فلا انتقام منه يمكن ، والكيد لذريته شيء مستطاع .

هذا في رأي هو سبب العداوة المستمرة في نفس الشيطان نحو آدم . إنه إحساسه دائماً أنه سبب بليته وسبب مصيبته .

« فلا يخرجكما ، فلا يكونن سبباً لإخراجكما .

« من الجنة ، وهذا كناية عن نهيمه عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان في إخراجهما منها .

« فلتشقي ، فتتعبد بمتاع الدنيا ، وهى لا تكاد تحصى ولا يسلم منها أحد .

لقد كانت حياتهما في الجنة نعيمًا ولذة وأنسا كلها .

من أجل ذلك حذرهما الله من إبليس ، ونصحهما أن يتسبب في إخراجهما بما كانا فيه .

كيف كانت حياتهما هذه التى استوجبت تلك النصيحة ؟ .

حياة آدم وحواء في الجنة

قال تعالى ، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ . (طه ١١٨ : ١١٩) .

« إن لك ألا تجوع فيها ، لا يمسك فيها يا آدم جوع ، ولا نقص من الثمرات فيها .
« ولا تعرى ، وإن لك فيها عدم العرى . فيها ما شئت من ملابس وزينة .
« وأنت لا تظمأ فيها ، ولا تجد فيها ظمأ يا آدم .
« ولا تصحى ، ولا تصيبك الشمس بحرهما .

وأيا ما كان فالمراد نفي أن يكون بلا منزل . والجملة تعليل لما يوجبه النهي فإن اجتماع أسباب الراحة فيها بما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مادي البقاء فيها والجد في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها . والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعم بفنون النعم من المأكل والمشرب ، وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى ، إلى ما ذكر من نفي نقائصها التي هي الجوع والعطش والعري والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبية على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذر سبحانه عنها ، ليبالغ في التحامى عن السبب المؤدى إليها . ومعنى (أن لا تجوع) إلخ أن لا يصيبه شيء من الأمور الأربعة أصلا ، فإن الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها ، وليس الأمر فيها كذلك ، بل كذا وقع فيها شهوة وميل إلى شيء من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل إلى حد الضرورة ، على أن الترغيب قد حصل بما سرغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى الشجرة .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . (مسلم) .

لقد كانا في رضوان الله ، وفي جوار الله ، وفي جنة الله ، ينعمان بالجنة وبأكلان من ثمارها ، وبأويان إلى ظلالها ، ويشربان من أنهارها ، ولم يكن يخطر ببالهما أن هناك في الغيب ما يعكر صفوهم .

ويكفي هؤلاء سبحانه في وصف النعيم الذي كانوا فيه قوله : فاخرجهما مما كانا فيه ، تأمل هذه الجملة تدرك إلى أي مدى كان ذلك النعيم .

فَتَنَسَّى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً

وعاش آدم وحواء في الجنة ما شاء الله . ولم يكن يخطر على قلبهما غير السجود بالسعادة ، والحب القائم بينهما في برادة وجمال .

وطال عليهما الأمد في نعيم الجنة وملاذها ، ونسى آدم ، ونسيت حواء ، أمر هذه الشجرة المحرمة عليهما . ولم يعودا يذكران من أمرها شيئاً . ونسى آدم ، ونسيت حواء ، على مر الأيام ، أن الله نهاهما عن الاقتراب من الشجرة . وذهب يسير هو وحواء قريباً منها . ووجد إبليس أن الفرصة قد حانت لتسكيرهما .

وكان إبليس يعلم أن آدم وحواء يتصاحبان كما تتصاحب الأطفال ، وأنهما لا يعلمان من أمر العورات والجنس شيئاً ، وأنه لا يرى منها عورتها ولا ترى منه حورته ، وأن الله قد حجب عنهما عوراتهما . فرأى أن الفرصة قد حانت لتكشف عنهما تلك الحجب . ويكون بينهما ما يكون من الشوق والميل بين الذكر والأنثى . هنا لك بدت لهما الشجرة كأجل ما تكون من الجمال والروعة . بدت ثمرها شهية بهية ، وازدانت في أعينهما ، وبدءا يفكران في الأكل منها .

لقد ذاقا ما شاءا من أشجار الجنة ، لكن هذه بالذات ، هذه الفاكهة المحرمة ، يجب أن يذوقاها .

لقد نسيا ما أمرهما ربهما بشأنها . نسيا بحكم مرور الوقت كما هي عادة الإنسان . قال تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَدَىٰ وَاسْمَ يُحْدِثُ لَهُ عَزْمًا . (طه ١١٥) .

« ولقد عهدنا إلى آدم ، ولقد وصينا آدم وأمرناه . ووصينا حواء كذلك وأمرناها . من قبل ، من قبل هذا الزمان .

« فَنسى ، فَنسى العهد ولم يهتم به ولم يشغل بحفظه حتى غفل عنه ، والعتاب جاء من ترك الاهتمام ، ومثله عليه السلام يعاتب على مثل ذلك . والمراد فترك ما وصى به من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها . وقيل : المنسى الوعيد بخروج الجنة إن أكل . وقيل قوله تعالى : (إن هذا عدو لك ولزوجك) .

وقرىء (فَنسى) بضم النون وتشديد السين أى نساها الشيطان . عن أبي بن كعب أنه سمع رسولَ صلى الله عليه وسلم يقول : « إن موسى قال لفتاة : آتينا غداة ننا ، قال : أرأيتَ إذْ أَوْبِئْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ؟ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ ، وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصْبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . » (البخارى) .

« ولم يجد له عزما ، تضميم رأى وثبات قدم في الأمور . وقيل لم يجد له صبرا عن أكل الشجرة .

فوسوس لهما الشيطان

وجاء إبليس يسمى إليهما ... ناعما كما يسمى إلى ذريتهما من بعدهما : قال تعالى : فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ

إلا أن تكونا ملكيين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما
إني لكمما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . . . (الأعراف ٢٠ : ٢٢) .
« فوسوس لهما الشيطان ، ألقى إليهما الوسوسة وهي في الأصل الصوت الخفى
المكرر ، وتطلق على حديث النفس أيضاً .

« ليبدى لهما ، ليظهر لهما . ولا يبعد أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف
عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسواة .

« ما وورى عنهما من سوءاتهما ، ما غطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا لا يريانها
من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وكانت مستورة بالنور .
« وقال ما نها كما ربكا عن هذه الشجرة ، أى الأكل منها .

« إلا أن تكونا ملكين ، أثلا تكونا ملكين . وقرىء (ملكين) بكسر اللام .
« أو تكونا من الخالدين ، الذين لا يموتون أصلاً أو الذين يخلدون في الجنة .
« وقاسمهما ، أقسم لهما . وقيل : قالاه : أقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين ؟ .
« إني لسا اى الناصحين ، وأقسم لهما بذلك .

« فدلاهما ، أى حطما عن درجتها ، وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية
فهو من دلى الدلو في البئر . وقيل أن معناه أطمعهما ، وأصله من تدليه العطشان شيئاً
في البئر فلا يجد ما يشق عليه .

« بغرور ، بما غرهما به من القسم . وسبب غرورهما على ما قاله غير واحد ،
أنهما ظنا أن أحدا لا يقسم بالله تعالى كاذباً ١١ .

ذهب كثير من المحققين أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظناً . وإنما أقدما
على المنهى عنه لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير
ما نشتهيه ، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال . ولعل كلام اللعين على هذا من قبيل
المقدمات الشعرية ، أثار الشهوة حتى غلبت ، ونسى معها النهى فوق الإقدام من غير
روية . وقيل : يمكن أن يقال إن اللعين كما وسوس لهما بقوله (ما نها كما) إلخ فلم

يقبلا منه عدل إلى اليمين على ما قال سبحانه (وقاسمهما) فلم يصدقاه أيضاً فعدل بعد ذلك إلى شيء آخر وكأنه أشار إليه سبحانه بقوله تعالى (فدلّاهما بغرور) وهو أنه شغلّهما باستيفاء اللذات ، حتى صارا مستغرقين بها ، ففسى النهى كما يشير قوله تعالى « ففسى ولم نجد له عزما » .

وقال تعالى « فَتَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى » . (طه ١٢٠) .

« يا آدم ، ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ، ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح .
« هل أدلك ، هل أرشدك .

« على شجرة الخلد » ، معنى شجرة الخلد ، شجرة من أكل منها خلد ولم يموت أصلاً سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكاً .

« وملك لا يبلى » ، أى لا يفنى أو لا يصير بالياً خلقاً . قيل : إن هذا من لوازم الخلود فذكره للتأكيد وزيادة الترغيب .

إن الله يريد يا آدم أن يمنعكما من هذه الشجرة لأنه يريد أن تموتا ، ولئن متا ذهب عنكما هذا النعيم الذى أتما فيه ، وهذا الملك الذى لا يبلى الذى تنعمون فيه .
وهنا أخبرنا أن الله نهاهما عن تلكا الشجرة بالذات ، فأجابهما فى دهاء « مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ، ما حرم الله عليكما هذه الشجرة إلا لئيمعكما أن تكونا ملكين تملسان هذه الجنة إلى الأبد ، وإلا لئيمعكما من الخلود فيها .

فلما رأهما ينظران إليه فى ريبة ، كأنهما لا يصدقانه أقسم لهما ليؤكد دعواه « إني لكأمان الناصحين » ، ما أردت إلا نصيحكما ، وإني لكأ لصديق حميم .

وزين إبليس لأدم وحواء الأكل من الشجرة وحدثهما أنفسهما أن يأكلا منها ..

فلما ذاقا الشجرة

واقترب آدم وحواء من الشجرة ، فازدادتا جمالا في أعينهما .
أنساهما الشيطان أن الله نهاهما عن الاقتراب منها .
واشتدت رغبتهما في تذوق ثمارها .
وتناولوا من ثمرها وأكلا .

قال : فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ... (الاعراف ٢٢) .
خلبا أكلا منها أكلا يسيرا . فلما ذاق آدم وذات حواء ثمر الشجرة المحرمة عليهما .
لقد كانت لحظة رهيبة فاصلة في الكون ، نسي فيها آدم نصيح الله له ونسيت فيها
حواء نصيح الله لها .

وانتصر الشيطان على آدم وحواء لأول مرة ، وأفلح كيده .
هذا ولم يشر القرآن الكريم إلى أيهما بدء بالاكل ، أو أغوى صاحبه بالاكل
من الشجرة المحرمة .

أهو آدم أكل ثم تبعته حواء ، أم حواء أكلت ثم تبعها آدم ، أم أنهما أكلتا سويا
وفي وقت واحد ؟ .

إلا أن الحديث الشريف يشير من بعيد إلى أن حواء هي التي بدأت ، وأغرت آدم
بالاكل وإن كان لم يقطع بذلك .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : **لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ
لَمْ يَخْتَنَزِ اللَّحْمُ ، وَلَوْلَا حَوَاءُ لَمْ يَخْنَأْ شَيْ زَوْجَهَا .** (البخارى) .
لم يخنز ، لم ينتن .

وعن قتادة : **كَانَ الْمَنُ وَالسَّلْوَى يَسْقُطُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى
طُلُوعِ الشَّمْسِ كَسَقُوطِ الثَّلَجِ ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ بِقَدَرِ مَا يَكْفِي ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ،**

فإنهم يأخذون له والسبت ، فإن تعدوا إلى أكثر من ذلك فسد ما ادخروا ، فكان ادخارهم فسادا للأطعمة عليهم وعلى غيرهم .

وفي الخلية لأبي نعيم عن وهب بن منبه قال : وجدت في بعض الكتب عن الله تعالى : لولا أنى كتبت الفناء على الميت لحبسه أهله في بيوتهم ، ولولا أنى كتبت الفساد على الطعام لحزنته الأغنياء عن الفقراء .

والذى يميل إليه قلبى فى معنى « لولا بنو إسرائيل لم يخزن اللحم ، أنه بمعنى : لولا ميل الأغنياء إلى اختزان الطعام عن الفقراء لم يكتب الله الثن والفساد على الأطعمة ، وبنو إسرائيل إشارة إلى عبي المال ، واللحم نيابة عن الأطعمة كلها .
« ولولا حواء لم تكن أنثى زوجها ، سميت بذلك لأنها أم كل حى ، أو لأنها خلقت من ضلع آدم صلى الله عليه وسلم القصيرى اليسرى وهو حى فى الجنة ، ومعنى خلقت أخرجت كما تخرج النخلة من النواة . ومعنى لولا حواء لم تكن أنثى زوجها إنما دعت آدم إلى الأكل من تلك الشجرة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا بنو إسرائيل لم يخزن الطعام ولم يخزن اللحم ، ولولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر (مسلم) .
« ولولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر ، أى لم تكنه أبدا ، ومعنى هذا الحديث أنها أم بنات آدم فأشبهنها ، ونزع العرق ، لما جرى لها فى قصة الشجرة مع إبليس فزين لها أكل الشجرة ، فأغواها ، فأخبرت آدم بالشجرة فأكل منها .
وعن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر . (مسلم) .

وهذه النصوص كلها تشير إلى أن حواء هى التى بدأت بالأكل ، أو على الأقل هى التى زينت وأغرت آدم أن يقدم على الفعلية .

هذا وإليك ما ورد فى الكتاب المقدس عن هذه المسألة : « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت

من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً منها فأكل... (تكوين . الإصحاح الثالث) .
هذا وليس المهم في الأمر أن نعرف من البادى . منهما أو من الذى أغوى صاحبه
وإنما المهم أن نعلم أنهما أكلا من الشجرة ، هو وهى ، وهذا ما قطع به الكتاب
الكريم .

بدت لهما سوءاتهما

فما أن أكلا من الشجرة ، ودخلت ثمارها إلى جوفهما حتى تحركت فيهما الشهوة
الجنسية ، ونظر آدم إلى حواء ، ونظرت حواء إلى آدم ، ورأت منه ورأى منها .
وكان بينهما من الشعور ما يكون بين كل ذكر وأنثى يخلوان إلى بعضهما البعض .
وله صلى الله عليه وسلم كان يومى ، إلى هذا المعنى حين قال «... ألا لا يخلون»
رجلٌ بامرأةٍ إلا كانا لثمتا الشيطان... » . (الترمذى) .
يعنى بالوسوسة ، وتبييج الشهوة ، ورفع الحياء ، وتسهيل المعصية ، وليس هناك رادع
إلا خوف الله .

نعم لقد كان آدم فى تلك اللحظة يخلو بحواء ، وكانت حواء تخلو بآدم ، وكان
الشيطان ثالثهما ، فعلا وحقيقة ووجوداً ، لا قولاً ووسوسة فحسب .
وما تكرر هذا المنظر فى بنى آدم وبناته من بعده ، إلا كان الشيطان ثالثهما .
كان آدم طارياً تماماً ، وحواء طارية تماماً ، والشيطان ثالثهما .
لقد كانت هذه هى اللحظة التى بلغ فيها آدم مبلغ الرجال ، وبلغت فيها حواء
مبلغ الأنثى .

قال تعالى «... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا... »
(الأعراف ٢٢) .

« بدت لهما سوءاتهما ، تهافت عنهما لباسهما ، فابصر كل منهما عورة صاحبه

فاستجبا . ثم السوأة كناية عن الفرج ، أى ظهر لهما فرجاها ، والضمير يرجع إلى آدم وحواء .

هذا وليس الجديد فى الأمر بعد ذوق الشجرة هو ظهور عورتها ، فإن ذلك كان قبل ذلك فليس فيه من جديد ، وإنما الجديد والذي هو معنى ما ورد فى الآية الكريمة ، هو أن كل منهما رأى فرج صاحبه بشعور جديد ، شعور الشهوة والرغبة التى تكون بين كل ذكر وأنى . هذا هو الجديد فى الأمر ، وهذا هو ما ترتب على الأكل من الشجرة .

وقال تعالى « فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » (طه ١٢١) .
« فَأَكَلَا مِنْهَا ، أى أكل هو وزوجته من الشجرة التى سماها اللعين شجرة الخلد .
« فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : صريا عن النور الذى كان الله تعالى البسهما حتى بدت فروجهما .

وطبقا يَخْصِفَانِ عليهما

من ورق الجنة

قال تعالى « .. وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ... »
(الأعراف ٢٢) .
« وطبقا ، وأخذا وجعلا .

« يَخْصِفَانِ » يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة . وأصل معنى الخصف الخرز فى طاقات النعال ونحوها بالصاق بعضها ببعض . يؤلفان الورق ويخصفان بعضه إلى بعض .
« عليهما » على سواتهما أو على بدنهما .
« من ورق الجنة » يجمعان ورقة من هنا وورقة من هناك ويجملاها سترًا يستر فرجيهما .

وقال «... وَطَنَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ تَرْقِي الْجَنَّةِ...»
(طه ١٢١).

وقد مر تفسيره .

لقد بدد آدم وحواء يشعان لأول مرة ، بالحياء من ظهور عورتيهما ، وأحسا أن
هذا شيء يجب ستره ، وأنهما أصبحا وفي قلبهما شعور جديد .
فإذا بعد هذا ؟

وعصى آدم ربه فغوى

قال تعالى «... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى...» (طه ١٢١) .

«وعصى آدم ربه» بما ذكر من أكل الشجرة .

«فغوى» ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود ، أو عن المطلوب منه وهو ترك
الأكل من الشجرة ، أو عن الرشيد حيث اغتر بقول العدو وقبل : غوى أي فسد
عليه عيشه .

وكذلك عصت حواء ربه فغوت ، وقال بعضهم : إنه تعالى اكفى بذكر شأن
آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له في الحكم ، ولذا طوى ذكر النساء في أكثر
مواقع الكتاب والسنة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احتج آدم وموسى - عليهما السلام -
عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ،
ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ثم
أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ قال آدم : أنت موسى الذي
اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ،
وقربك نجيباً ، فبكتم وجدبت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟

قال موسى : بأربعين طاماً ، قال آدم : فهل وجدبت فيها وعصى آدم ربه ؟

مفقوى؟ قال: نعم، قال: أفطلبوننى على أن غملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى. (مسلم).

ومعنى كلام آدم: أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب على قبل أن أخلق وقد رعى فلا بد من وقوعه، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم تقدر ظم تلومنى على ذلك؟ ولأن اللوم على الذنب شرعى لا عقلى، وإذا تاب الله تعالى على آدم وغفر له زال عنه اللوم، فمن لومه محجوجا بالشرع، فإن قيل: فالعاصى منا لو قال هذه المعصية قدرها الله على لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقا فيما قاله؟ فالجواب أن هذا العاصى باقى فى دار التكليف، تجار عليه أحكام المكلفين من العقوبة، واللوم والتوبيخ وغيرها، وفى لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت، فأما آدم فبیت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر، فلم يكن فى القول المذكور له فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل، والله أعلم.

وقد اختلفوا فى أمر معصية آدم عليه السلام. هل كانت منه وهو نبي أولم يكن وقتها نبيا؟ وهل كانت منه عن عمد أم عن نسيان؟

والحقيقة أن آدم عليه السلام لم يكن وقت وقوع المعصية نبيا، بل كان على الفطرة الطيبة التى فطر الله الناس عليها. كان على خلق أهل الجنة، خيرا خالصا، لم يكن يعرف ما هو الشر وما هو الخطأ، لأنه لم يذوق طعمهما بعد. ومن هنا استطاع إبليس أن يدخل عليه ما شاء من كيد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن النبوة لا مكان لها فى الجنة وإنما مكانها فى الأرض، إذ ما معنى النبوة فى الجنة، وعلى من يكون آدم فيها نبيا وهى دار ثواب لا دار تكليف؟ إن النبوة تكليف وإرشاد وهداية وجهاد، وهذه المعانى كلها مكانها فى الأرض التى هى دار التكليف والجهاد والطاعة والدعوة، أما الجنة حيث كان آدم وقت المعصية، فلا مجال فيها

لكينونة النبوة ، لأن النبوة شيء لا معنى له في مكان هو في غير حاجة إليها .
وأما نبوة آدم فبدأت عندما هبط إلى الأرض ، ونزل إلى دار التكليف ، إنها في
هذه الحالة شيء طبيعي مطلوب .

وأما البحث عما دفع آدم عليه السلام إلى المعصية ، وهل كانت منه عن عمد أو
عن نسيان ، فالجواب عليه أوضح من أن يحاج عليه ، وقد تولى الله ذلك بقوله
سبحانه « فَنَسِيَ » ولم نجد له عزماً ، وهذا ظاهر في كون المعصية وقعت منه عن نسيان
في غمرة من زينة الجنة وزخرفها .

والخلاصة أن آدم وحواء كانا على الفطرة ، لا يعرفان الخير من الشر .
وأن آدم وقتها لم يكن نبياً .
وأن ما حدث كان عن نسيان .

... فَتَغْوَى

قال تعالى « ... فَتَغْوَى » . (طه ١٢١) .
كيف غوى آدم وكيف غوت حواء ، حين وقعت منهما المعصية ، حين أكلتا
من الشجرة المحرمة ؟
ثم ما هو الغي ؟
الغي هو الضلال . ومعنى « فتغوى » أي فضّل آدم وضلت حواء .
إنها مرحلة جديدة في حياة آدم ، وفي حياة حواء .
لقد كانا قبل هذا البلاء في نعيم لا يعكر صفوه شيء ، إذا اشتبها شيئاً من الجنة
جاءهم يسعى ، وإذا رغبا في أمر كان بين أيديهم .
وكانت نفوسهم راضية لا تسخط لأنهم في رضوان الله ، آمنة لا تخاف لأنهم آمنة
من الله ، صافية لا كدورة فيها لأنها خير خالص لم يخالطه شر أبداً .
(م ٦ — آدم)

فلما قضى الأمر ووسوس لهما الشيطان ، قبلما منه ما زين لهما ، لأنهما لا يفرقان بين الخير والشر .

وكان هذا بداية التغير في نفسيهما ، وخالط قلبهما شيء جديد لا عهد لهما به ، شيء اسمه الوسواس . ثم كان بما كان ، وأكلا ، وذاقا ، وتهاافت عنهما لباسهما ، ورأى كل منهما من صاحبه ما لم يك يرى من قبل .
ودب إليهما الحياء من ظهور عورتهم . . . وكان ذلك شعور جديد عليهما كذلك .

وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وكان هذا أول عمل لهما يقومان به في تعب وألم . . . وكان ذلك شعور جديد آخر ، ينضم إلى المشاعر السابقة التي ولدت فيهما ولم يكن لهما بها عهد .

وانسابت مشاعر الندم والحيرة إليهما ، ووقعا في حيص بيص .

ماذا يفعلان ؟ وكيف يستتران ؟ وأين يذهبان . . حياء من الله ؟ .

إن كل شيء يبدو في أعينهما كأنه تغير عن ذي قبل .

لم يعود يحسان بالرضى والطمأنينة التي كانوا عليها . لقد انفتحت أعينهما على الخير والشر ، وبدأ يعرفان أن هناك ما يسمى بالفعلة السيئة ، وما يسمى بالفعلة الحسنة . واستبد بهما الألم . . . ومضى زمان طويل على هذا الأمر ، وهما لا يدريان ماذا يفعلان .

وتألم آدم وتألمت حواء .

وشق آدم وشقيت حواء .

وغوى آدم وغوت حواء .

وكانت آلامهما ترجع إلى الحرمان بعد العطاء ، وإلى نار المهجر بعد الوصال .

لقد تركهما ربهما بعيداً ، تركهما إلى أنفسهما ، فأحسا بالسلب ، واختفى من

قوادهما الرضى الذى كان يغمرهما .

وبدا في وجهيهما المنيرين أثر المعصية ، فاختلف ظاهريهما كما اختلف باطنيهما من قبل .

واستبد بهما الندم وأحاط بهما الألم .
وانهمرت دموعهما ، وعرفا لأول مرة البكاء ، وسالت على خدودهما قطرات الدمع الحارة .
وجعلا يتلاومان ، وبينهما يتلاومان ...

وناداهما ربهما

قال تعالى : « ... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .
(الأعراف ٢٢) .

« وناداهما ربهما » بطريق العتاب والتوبيخ .
« ألم أنهكما » قائلا لهم ألم أنهكما .
« عن تلك الشجرة » إشارة إلى الشجرة التي نهيها عن قربانها .
« وأقل لكما ، أى ألم أقل لكما ؟ » .
« إن الشيطان لكما عدو مبين » أى ظاهر العداوة . وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو . كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى .
واستدل بعضهم بالإية على أن مطلق النهى للتحريم لما فيها من اللوم الشديد مع الندم والاستغفار المفهوم مما يأتى . والأكثرون على أن النهى هنا للتنزيه ، وندمهما واستغفارهما على ترك الأولى ، وهو فى نظرهما عظيم ، وقد يلام عليه أشد اللوم إذا كان فاعله من المقربين .
والقول المشار إليه هو قوله سبحانه « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ... » .

لقد كان هذا النداء من قبل الرب تبارك وتعالى بالنسبة لآدم وحواء رحمة من الله تداركتهما بعد أن كانا في ظلمات بعضها فوق بعض ، وآلام متراكمة ، وأحزان متواصلة .

إن الله سبحانه أراد أن يرحمهما ، رغم ما كان منهما ، فتأداهما وهما في حيرتهما وحزنهما .

وسمع آدم النداء من قبل الرب تبارك وتعالى ، وسمعت حواء ، وأقبلا على الله لإقبال من استبد به الظما على الماء .

ربنا ظلمنا أنفسنا

قال تعالى « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . (البقرة ٣٧) .

« تلتقى آدم من ربه كلمات » المراد بتلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها ، فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأحبة — إذا قدم بعد طول الغيبة — لأنهم لا يدعون شيئا من الإكرام إلا فعلوه ، وإكرام الكلمات الواردة من الحضرة الأخذ والقبول والعمل بها . وفي التعبير — بالتلقى — إيماء إلى أن آدم عليه السلام كان في ذلك الوقت في مقام البعد .

والمشهور أن هذه الكلمات هي (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا) الآية . « فتاب عليه » التوبة أصلها الرجوع ، وإذا أسندت إلى العبد كانت — كما في الأحياء — عبارة عن مجموع أمور ثلاثة — علم — وهو معرفة ضرر الذنب ، وكونه حجابا عن كل محبوب ، وحال يشمره ذلك العلم ، وهو تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، ونسميه ندما . أو عمل يشمره الحال . وهو الترك والتدارك . والعزم على عدم العود ، وكثيراً ما تطلق على الندم وحده لكونه لازماً للعلم مستلزماً للعمل . وفي الحديث « الندم توبة » وطريق تحصيلها — كميل الإيمان بأحوال الآخرة وضرر المعاصي فيها .

وإذا أسندت إليه سبحانه كانت عبارة عن قبول التوبة والعفو عن الذنب ونحوه أو التوفيق لها والتيسير لأسبابها بما يظـهر للتائبين من آياته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته ، حتى يستشعروا الخوف فيرجعوا إليه ، وترجع في الآخرة إلى معنى التفضل والعطف ، ولهذا عدت - بعلى - .

ولم يقل جل شأنه - فتاب عليهما - لأن النساء تبع يغنى عنهن ذكر المتبوع .
« لأنه هو التواب » إشارة إلى قبوله التوبة كلما تاب العبد . ويحتمل أن ذلك لكثرة من يتوب عليهم .

وجمع بين وصفى كونه توابا وكونه رحيا إشارة إلى مزيد الفضل .
« الرحيم » إشارة إلى أن قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب بل على سبيل الترحم والتفضل ، وأنه الذى سبقت رحمته غضبه ، فيرحم عبده فى عين غضبه - كما جعل هبوط آدم سبب ارتفاعه ، وبعده سبب قربه - فسبحانه من تواب ما أكرمه ، ومن رحيم ما أعظمه !

وقال « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . (الأعراف ٢٣) .

« قالا ، عندما ناداهما ربهما » ألم أنهما عن تلكا الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، اشتد خوف آدم وحواء من الله سبحانه ، وظنا أن الله تعالى سينزل بهما عقوبة على فعلهما الذى فعلا ، فقالا جميعا ما ألهمهما الله سبحانه، وتحرك لسان آدم وتحرك لسان حواء ...

« ربنا ظلمنا أنفسنا ، أى ضررناها بالمعصية . وقيل : نقصنا حظها بالتعرض للإخراج من الجنة .

وفى هذا التعبير ما فيه من الاستكانة لله تعالى والتذلل بين يديه ، مما يدل على شدة خوفهما من بطش الله تعالى .

« وإن لم تغفر لنا ، ذلك بعدم العقاب عليه . وإن لم تتجاوز لنا عما كان منا .
« وترحمنا . بالرضا عنا . وقيل : المراد وإن لم تستر علينا بالحفظ عما يتسبب
تقصان الحظ ، وترحمنا بالتفضل علينا بما يكون عوضا عما فاتنا .
« لنكون من الخاسرين » من الذين خسروا خسرانا مبينا ، من السكاملين في
الخسران .

وقيل إن ذلك كان قبل نبوة آدم عليه السلام ، إذ لا يجوز على الأنبياء عليهم
السلام بعد النبوة كبيرة ولا صغيرة .

وقال تعالى « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (طه ١٢٢) .
« ثم اجتباها ربه ، أى اصطفاها سبحانه ، وقربه إليه ، بالحمل على التوبة والتوفيق
من اجتبي الشيء جباه لنفسه أى جمعه . وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى
ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام .
« تاب عليه » أى رجع عليه بالرحمة وقبل توبته حين تاب .

« وهدى » أى إلى الثبات على التوبة والتمسك بما يرضى المولى سبحانه . وقيل :
إلى النبوة والقيام بما تقتضيه . وقيل الاجتباء بالاختيار للرسالة . وجعلوا الآية
دليلا على أن ما جرى قبل البعثة .

وقال بعضهم : إنه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له
في الحكم .

وعلى هذا يكون من تمام معنى الآية كذلك : ثم اجتباها ربه تاب عليها وهداها
أى أن الله سبحانه تاب على حواء وهداها كما تاب على آدم وهداها ، لأنهما استغفرا
معا ، كما أنهما أكلتا معا وعصيا معا .

وذاق آدم وذاقت حواء طعم الرضى من جديد ، حين عفا الله عنهما ، وقربهما
بعد أن تاب عليهما .

واستعادت وجوههما نورهما الذى كان يتلأأ فيها ، واحلوت الحياة فى الجنة من جديد .

فإذا حدث بعد ذلك ؟ .

هل يستمران فيما هما فيه ، هل يعودان إلى ما كانا عليه من العيش فى الجنة ؟ . كلا . إن فى تسكوبنهما الآن شيئاً جديداً ، لم يعد يصالح للجنة ، ولا يتناسب معها . إن الغربة الجنسية قائمة بهما الآن ، وما يستتبعها من إتيان وإمناة وحيض ونفاس وحمل ووضع وغير ذلك .

اهبطوا منها جميعاً

قال تعالى : ... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (البقرة ٣٦ : ٣٩) .

« وقلنا اهبطوا ، المخاطب آدم وحواء وإبليس .

« بعضكم لبعض عدو ، كل منكم عدو الآخر ، أنتم وذريبتكم .

« ولكم فى الأرض مستقر ، اهبطوا إلى الأرض حيث تجدون لكم فيها مستقرا

يناسبكم بعد الذى كان منكم .

« ومتاع ، تلتفعون بما فيها . وتستمعون بما عليها .

« إلى حين ، والحين مقدار من الزمان قصيراً أو طويلاً ، والمراد هنا إلى وقت

الموت ، وهو القيامة الصغرى .

« قلنا اهبطوا منها ، كرر للتأكيد .

« جميعا ، أى مجتمعين سواء كان فى زمان واحد أولا . وقد يفهم الاتحاد فى الزمان من سياق الكلام .

« فإما يأتينكم منى هدى ، الخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، وأدخل الكثيرون (إبليس) لأنه مخاطب بالإيمان .

وتكرر الهدى لأن المقصود هو المطلق ولم يسبق فيه عهد فيعرف ، وفى المراد به هنا أقوال ، قليل . الكتب المنزلة ، وقيل : الرسل .

« فمن تبع هداى ، فمن عمل بما أنزلت إليه من عندى .
« فلا خوف عليهم ، من عقاب فى الآخرة .

« ولا هم يحزنون ، وفيه إشارة إلى أنه يدخلهم الجنة التى هى دار السرور والأمن لا خوف فيها ولا حزن .

« لقد كانت هذه هى الوصية الأولى التى أوصى الله بها آدم وحواء ، حين أمرهما بالنزول إلى الأرض ، وبالخروج من الجنة .

إنكم ستزلون حتما وفورا إلى مكان آخر غير هذه الجنة ، إلى الأرض ، إلى الكوكب الأرضى .

وستستقرون فيها ، وتستمتعون بما عليها حتى الموت .

وسأنزل إليكم كتبى ، وأبعث إليكم رسلى ، يذكر لكم ما لكم وما عليكم .

فمن آمن وعمل صالحا ، فسوف أعيده إلى هذه الجنة التى أخرجتم منها ، ومن

كفر بآياتى التى أنزلت فإلى جهنم وبئس القرار .

وقال « قَالِ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . قَالِ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » . (الأعراف ٢٤ و ٢٥) .

« قال اهبطوا ، المأثور عن كثير من السلف أنه خطاب لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس عليه اللعنة .

« بعضكم لبعض عدو » ، كل منكم عدو للآخر . والمراد هم وذريتهم واختار بعضهم كون العداوة هنا بمعنى الظلم أى يظلم بعضكم بعضا بسبب تضليل الشيطان .
« ولكم فى الأرض مستقر » أى استقرار أو موضع استقرار .
« ومتاع » أى بلغة .

« إلى حين » يريد به وقت الموت .

« قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » عند البعث يوم القيامة .

وقال « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا تُبَيِّنُكُمْ مِّنْى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى » . (طه ١٢٣ و ١٢٤) .

« قال » قال الله تعالى لأدم وحواء .

« اهبطا منها جميعاً » انزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين ، وقبل الخطاب له عليه السلام وإبليس عليه اللعنة فإنه دخل الجنة بعد ما قيل له (اخرج منها فإنك رجيم) للوسوسة .

« بعضكم لبعض عدو » لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد فالتعادى فى الحقيقة بين أولادهما . ولظهور العداوة بين آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة ، وكذا بين ذرية آدم عليه السلام وذرية اللعين . ومن هنا قيل : الضمير لأدم وذريته وإبليس وذريته .

« فأما يا تبينكم منى هدى » أى بنى أرسله إليكم وكتاب أنزله عليكم .

« فمن اتبع هداى » وضع الظاهر موضع المضمرة مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه .

« فلا يضل » فى الدنيا .

« ولا يشقى » فى الآخرة .

« ومن أعرض عن ذكرى ، الذكر يقع على القرآن ، وعلى سائر الكتب الالهية .
فإن له معيشة ضنكا ، أى ضيقة شديدة . وروى تفسيره بالشديد من كل وجه
والمبادر أن تلك المعيشة له فى الدنيا ، ووجه ضيق معيشة الكافر المعرض فى الدنيا
أنه شديد الحرص على الدنيا متمالك على ازديادها ، خائف من انتقاصها ، غالب
عليه الشح بها ، حيث لا غرض له سواها ، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة . وقيل
الضنك مجاز عما لا خير فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه وزيادة
فى عذابه يوم القيامة كما دلت عليه الأخبار . وقال بعضهم : إنها تكون يوم القيامة
فى جهنم .

« ونحشره يوم القيامة أعمى ، الظاهر أن المراد فاقد البصر .

« وفى رواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : أن الكافر يحشر أولا بصيراً
ثم يعمى ، فيكون الاختيار بأنه قد كان بصيراً أخباراً عما كان عليه فى أول حشره .
هبطوا جميعاً ، آدم وحواء وإبليس ، من الجنة ونزلوا إلى الكوكب الأرضى ،
وكان ذلك فى يوم الجمعة .

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : خير يوم طلعت عليه
الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ،
ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة . (مسلم) .

قال القاضى عياض : الظاهر أن هذه الفضائل المحدودة ليست لذكر فضيلته
لأن إخراج آدم وقيام الساعة لا يعد فضيلة ، وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور
العظام ، وما سيقع ، ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة ، لنيل رحمة الله ودفع نقمته .
وقبل : الجميع من الفضائل ، وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية ،
وهذا النسل العظيم ، ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ، ولم يخرج منها
طرداً بل لقضاء أوطار ثم يعود إليها ، وأما قيام الساعة فسبب لتعجيل جزاء الأنبياء

والصديقين والأولياء وغيرهم وإظهار كرامتهم وشرفهم ، وفي الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام .

فأخرجهما مما كانا فيه

قال تعالى « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ... »
(البقرة ٣٦) .

« فأزلهما ، أى حملهما على الزلة بسببها ، وتحقيقه أصدر زلتهما عنها ، والضمير على هذا للشجرة . وقبل : أزلهما أى أذهبهما والضمير حينئذ للجنة .

« الشيطان عنها » إبليس عن الجنة .

« فأخرجهما مما كانا فيه » أى من النعيم والكرامة ، أو من الجنة .

وفي الكلام من التفضيم ما لا يخفى .

وقال « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ أَنْفُسِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَّكَّرُونَ . يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ أَنفُسِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » (الأعراف ٢٦ و ٢٧) .

« يا بني آدم ، خطاب للناس كافة : ولا يخفى سر هذا العنوان في هذا المقام .

« قد أنزلنا عليكم لباساً ، أى خلقنا لكم ذلك بأسباب نازلة من السماء ، كالطر الذي ينبت به القطن الذي يجعل لباساً . وقيل إنا أعطيناكم ذلك ووهبناه لكم وكل ما أعطاه الله تعالى لعبده فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو أو سفل بل هو جار مجرى التعظيم .

« يؤارى » يستر .

« سوءاتكم ، التي قصد إبليس عليه اللعنة إبداءها من أبويكم حتى اضطروا إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك .
« وریشا ، أى زينة أخذنا من ریش الطير لأنه زينة له . فيكون اللباس موصوفا بشيئين مواراة السوءة والزينة .

« ولباس التقوى ، أى العمل الصالح ، أو خشية الله تعالى ، أو الحياء ، أو الإيمان أو ما يستر العورة وهو اللباس الأول ، أو لباس الحرب أى الملابس العسكرية التي يتق بها من العدو ؛ أو ثياب النسك والتواضع كلباس الصوف والخشن من الثياب .
« ذلك خير ، الإشارة بالبعيد للتعظيم . أى لباس التقوى خير .
« ذلك ، أى انزال اللباس المتقدم كله أو الآخر ،
« من آيات الله ، الدالة على عظيم فضله وعميم رحمته .

« لعلهم يذكرون ، فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح .
« يا بنى آدم ، تذكير النداء للايدان بكال الاعتناء بضمون ما صدر به .
« لا يفتلنكم الشيطان ، أى لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم بما يمنحكم به عن دخول الجنة فتطيعوه .
« كما أخرج أبويكم من الجنة ، كما قن أبويكم ومحنهما بأن أخرجهما منها . ونسبة الاخراج إليه لأنه كان بسبب اغوائه .
« ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، سلبيهما لباسهما ليرى آدم عورة حواء ، ويرى حواء عورة آدم .

« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، تأكيد للتحذير ، لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف . والقبيل الجماعة والمراد بهم هنا جنوده من الجن . وليس في الآية أكثر من نفي رؤيتهم في صورهم الأصلية .
« إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، أى قرناء لهم مسططين عليهم ، متمكنين من اغوائهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة ، أو بارسلهم عليهم وتمسكينهم منهم .

وكذلك أخرج إبليس آدم وحواء من الجنة ، من نعيمها الذى كانا فيه .
ونزل آدم وحواء ليسكننا الكوكب الأرضى فى مكان ما من سطح الأرض ،
على اليابسة فى مكان لا يعلوه إلا الله سبحانه .

ربما هبطا سويا ، ونزلا معا ، ووصلا الأرض فى مكان واحد .
وربما هبط آدم فى مكان من الأرض ، وهبطت حواء فى مكان آخر ، بعيد أو
قريب ، ثم التقت به بعد ذلك والتقى بها .
كل هذا جائز ... ولا يعلم الغيب إلا الله .

المهم أنهم نزلوا إلى الأرض ، وأنهم اتخذوها مسكنا ، وبذلك تحقق القدر ،
ومضى القضاء ، ووقع قوله سبحانه : إني جاعل فى الأرض خليفة .

كانت الكرة الأرضية فى انتظارهما فعلا ، وكان كل شئ فيها ينتظر نزول الإنسان .
أنهارها مطردة ، تفيض وتنضب ؛ ولكن لا يوجد من ينتفع بمائها وخيرها .
أشجارها تزهر وتثمر ، ثم تنضج الثمار ، ثم تتساقط على الأرض ، وتذهب مع
الريح ، لأنه لا يوجد من يأكلها .

حيوانها يجرى فى نواحيها ، يأكل وحشه من أليفه ، ولكن لا يوجد من يستأنسها
ويذلها ويأكل من لحومها وألبانها .

طيورها تغرد وتبيض وتفرخ ، ولكن لا يوجد من يستمع إلى التغريد ، ومن
يأكل من البيض ، ومن يتلذذ بلحومها .

باطنها يحوى المعادن والأعاجيب ولكن لا يوجد من يستخرج ذلك كله
ويستفيد منه .

ظاهرها أعداء أعداء جميلا ، وكل ما فيه ينادى بمن يعلو هذا العرش .
فكان نزول آدم وحواء إلى الأرض ، استجابة طبيعية لنداء الأرض وما عليها .
واتخذ آدم وحواء من اليابسة عرشهما .

أما إبليس فجعل عرشه ...

عرش إبليس

عن جابر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن عرش إبليس على البحر ، يبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة . (مسلم) .

« إن عرش إبليس على البحر ، العرش هو سرير الملك ومعناه أن مركزه البحر ، ومنه يبعث سراياه في نواحي الأرض . فكما أن الإنسان سكن اليابسة من الكرة الأرضية فهي له مستقر . فكذلك إبليس سكن البحر فهو له مستقر .

وكما أن الإنسان يركب البحر ليلتقي من فضل الله ، فكذلك إبليس يبعث سراياه إلى اليابسة للتجريس بين الخلق وإضلالهم .

عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يحيى أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئا ، قال : ثم يحيى أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت ... (مسلم) .

« فيدنيه منه ويقول نعم أنت ، هي الموضوعة للدح ، فيمدحه لإعجابه بصنعه وبلوغه الغاية التي أرادها .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير . (مسلم) .

« فأسلم ، فأسلم برفع الميم ، وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان ، فمن يرفع قال

معناه أسلم أنا من شره وفتنه ، ومن فتح قال : إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير . واختلفوا في الأرجح منهما ، فقال الخطابي الصحيح المختار الرفع . ورجح القاضي عياض الفتح ، وهو المختار لقوله صلى الله عليه وسلم : فلا يأمرني إلا بخير . واختلفوا على رواية الفتح قبل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم ، فاستسلم ، وقيل معناه : صار مسلماً مؤمناً وهذا هو الظاهر . قال القاضي : واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه . وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان .

وهكذا بدأ إبليس رسالته في الأرض .

رسالة الاغواء والإضلال والإفساد .

رسالة التسلط على الإنسان بالوسوسة ، التسلط على عدوه الأول ، الذي كان سبباً في طرده من الجنة ، بعد أن كان ملاكاً كريماً .

هو دائم الوسوسة للإنسان ، لا يتركه أبداً من ولادته حتى موته .

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كلُّ بني آدم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أمه ، إلا مريم وابنها . (مسلم) .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صباحُ المولود حين يقع نزغة من الشيطان . (مسلم)

« صباح المولود حين يقع نزغة من الشيطان ، أى حين يسقط من بطن أمه ، ومعنى نزغة نخسة وطعنة ، ومنه قولهم نزغه بكلمة سوء أى رماه بها .

وهذا ظاهر في عدا إبليس وذريته لأدم وذريته وأنه بلغ من شدة الغيظ والحقد أن يذهب إلى المولود لساعه لينزغه وينخسه ، ولعل ذلك لأنه لا يدري كيف يضل المولود حيث لا عقل له بعد ، فينخسه غيظاً منه .

ذلكم هو العدو المبين .
ذلكم هو إبليس اللعين .
أما آدم فسكن الأرض ... سكنها ...

ليبلوكم أيكم أحسن عملا

سكن آدم وحواء في الأرض ، وسكن فيها من بعدهما ذريتهما ، لتحقيق فكرة الحياة . والغاية من الحياة « وهدف الحياة الدنيا ، وهي قوله تعالى ...
« الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ، (الملائك ٢) .
« الذي ، هو الذي .
« خلق ، أوجد .

« الموت ، على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة .
« والحياة ، صفة وجودية بلا خلاف وهي ما يصح بوجوده الإحساس .
وتقديم الموت على تقدير كونه عدما مطلقا أعنى عدم الحياة عما هي من شأنه
ظاهر بسبقه على الوجود ، وعلى تقدير كونه العدم اللاحق كما هو الأنسب بالإرادة
هنا أعنى عدم الحياة عما اتصف بها ، فلأن فيه مزيد غلبة وتذكرة وزجر عن
ارتكاب المعاصي وحث على حسن العمل .

« ليبلوكم ، أى ليعاملكم معاملة من يختبركم .
« أيكم أحسن عملا ، أى أصوبه وأخلصه ، فيجازيكم على مراتب متفاوتة
حسب تفاوت مراتب أعمالكم .

وأصل البلاء الاختبار . والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح
ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية: أيكم أحسن عملا ، وأورع عن محارم الله

تعالى ، وأسرع في طاعة الله عز وجل ، أى أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله تعالى ، وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه سبحانه .

« وهو العزيز ، الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء .

« الغفور » لمن شاء منهم أو لمن تاب على ما اختاره بعضهم لأنه أنسب بالمقام .

والقرآن الكريم والسنة البيضاء ، ملئان بما يؤيد ذلك ، ولو ذهبنا تتبع النصوص الكريمة في هذه الناحية لطال الأمر بنا .

ولكن نكتفي بهذه الآية الكريمة التى لخصت الغاية من الحياة الدنيا ، وإرادة

الله تعالى التى يريد بها من آدم بإنزاله إلى الأرض ، ويريد بها من ذريته من بعده .

فالحياة ليست لننعم بها ، وليست لنشقى فيها ، ولكن لنبتلى ، لتختبر فى أساسها

ونعماتها ، فى خيرها وشرها .

قال تعالى « ... ونبليكم بالشر والخير فتنة » وإلينا ترجعون . (الانبياء ٣٥) .

وقال « ... وبلّوهم نساءهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون » . (الأعراف ١٦٨)

فليس الأمر كما ذهب كثير من الفلاسفة ، والمفسرين .

ولا كما ذهب المتفائلون الذين يرون الحياة لذة وسروراً .

ولا كما ذهب المتشائمون الذين يرونها حزناً وآلاماً .

ولكن الحياة شر وخير ، حزن وسرور ، لذة وألم ، سلب وعطاء ، غنى وفقير

حياة وموت ، وفى النهاية جنة أو نار ، وهنا مجال العقل ، ومجال الاختيار ،

ومجال التكليف ، ومجال الجزاء .

عقلك الميزان ، هو النور الإلهى ، « هو الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل .

وعن يمينك ملاك يلهمك الخير .

وعن يسارك شيطان يوسوس لك الشر . وأنت تختار ما تشاء .

فإن شئت اليمينى فالى اليمين ، وإن شئت اليسرى فالى اليسار .

وهذه هي قصة الحياة ، ومن أجل ذلك نزل آدم وحواء إلى هذه الأرض .
ونزل معهما إبليس . وجعل الله بعضهم لبعض عدوا ، ليتم الموضوع ، وتكتمل
أدوات الاختبار .

ابن آدم

قال تعالى : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ
مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ
اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ
يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
تَبْنُوا يَابُعِي وَلِائِمِيكَ فَتَسْكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّخَّاسِينَ . فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ
يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
الْغُرَابِ فَأُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ . » (المائدة: ٢٧: ٣١) .
« واتل عليهم ، ضمير « عليهم » يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر إذ هم المحدث
عنهم أولا ، وأمره صلى الله عليه وسلم بتلاوة ذلك عليهم إنلاما لهم بما هو غامض
في كتبهم الأولى الذي لا تعلق للرسول عليه الصلاة والسلام بها إلا من جهة الوحي
لتقوم الحجة بذلك عليهم .

وقيل للضمير عائد على هذه الأمة أي اتل يا محمد على قومك .
« نَبَأُ ابْنِ آدَمَ ، هابيل عليه الرحمة . وقابيل عليه ما يستحقه ، وكنا بإجماع غالب
المفسرين ابن آدم عليه السلام لصاحبه .
روى أنه كان لا ولد لآدم عليه السلام . ولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج
غلام هذا البطن بجارية هذا البطن الأسر ، يزوج بجارية هذا البطن غلام هذا

البطن الآخر ، جعل اقتراق البطون بمنزلة اقتراق النسب للضرورة إذ ذاك حتى ولد له ابنان يقال لهما هاييل . وقاييل ، وكان قاييل صاحب زرع ، وهاييل صاحب ضرع ، وكان قاييل أكبرهما ، وكانت له أخت اسمها إقليا أحسن من أخت هاييل ، وأن هاييل طلب أن ينكح أخت قاييل فأبى عليه ، وقال : هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها . فأمره أبوه أن يزوجه هاييل فأبى فقال لهما قريبا قربانا فن أيكما قبل تزوجهما ، وإنما أمر بذلك لعله أنه لا يقبل من قاييل لا أنه لو قبل جاز . ثم قريبا قربانا ، فقرب هاييل جذعة ، وقيل : كبشا ، وقرب قاييل حزمة سنبل فوجد فيها سنبله عظيمة فقرمها وأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هاييل ، وكان ذلك علامة القبول ، وكان أكل القربان غير جائز في الشرع القديم ، وتركت قربان قاييل فغضب ، وقال : لأقتلك فأجابه بما قص الله تعالى .

« بالحق ، ائمل تلاوة متلبسة بالحق والصحة . موافقا لما في كتب الأولين .

« إذ قريبا قربانا ، إذ قدم كل منهما قربانا . والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو غيرها .

« فتقبل من أحدهما ، وهو هاييل .

« ولم يتقبل من الآخر ، وهو قاييل . لأنه سخط حكم الله تعالى ، وهو عدم جواز نكاح التوأمة .

« قال ، لأخيه لفرط الحسد على قبول قربانه ورفعة شأنه عند ربه عز وجل .

وقيل : على ما سيقع من أخذ أخته الحسناء .

« لأقتلك ، أي والله تعالى لأقتلك .

« قال ، هاييل الذي تقبل قربانه لما رأى حسد أخيه .

« سخطنا يتقبل الله ، أي القربان والطاعة .

« من المتقين ، في ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى لا من غيرهم ، ومراده من

هذا الجواب إنك إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها عن لباس التقوى لا من قبل

فلم تقتلني ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله تعالى التي هي السبب في القبول ١٩ .

وهو جواب حكيم مختصر جامع لمعان .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، لئن بسطت إلى يدك كي تقتلني ما أنا بباسط يدي إليك كي أقتلك ، ولا شبهة في ذلك أولاً وآخرأ لأن المدافع إنما يحسن منه المدافعة للظالم طلباً للتخلص من غير أن يقصد إلى قتله . فكأنه قال له : لئن ظلمتني لم أظلمك .

والمعنى لئن هممت بقتلي ما أنا بقاتلك ولكن فقط أَدافع عن نفسي ولا أقتلك لأنك أخى والأخوة تمنعني من ذلك .

« إني أخاف الله رب العالمين ، تملييل للامتناع عن بسط يده ليقتله . وفيه إرشاد قايل إلى خشية الله تعالى على أتم وجه ، وتعرض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى . « إني أريد أن تبوء يا أمي وإثمك ، إني أريد باستسلامي وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع يا أمي أي تتحملة لو بسطت يدي إليك حيث كنت السبب له ، وأنت الذي علمتني الضرب والقتل ، وإثمك حيث بسطت إلى يدك .

وقيل : معناه يا أمي قتلي (وإثمك) الذي هو قتل الناس جميعاً حيث سننت القتل .

« فتكون من أصحاب النار ، فتكون يا قايل من الملازمين للنار .

« وذلك جزاء الظالمين ، وهي من كلام هايل على ما هو الظاهر . وقيل : بل هي إخبار منه تعالى للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فسميته له ووسعته والتصریح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه .

« فقتله ، روى أن قايل طلب أخاه ليقتله فراغ منه في رموس الجبال فأناه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن إلى أن بعث الله تعالى الغراب .

« فأصبح من الخاسرين ، دنيا وآخرة »
وعن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل نفساً ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل . (مسلم) .

« الكفل ، الجزاء والنصيب وقال الخليل هو الضعف .
وهذا الحديث من قواعد الإسلام وهو أن كل من ابتدع شيئاً من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك للعمل مثل عمله إلى يوم القيامة ، ومثله من ابتدع شيئاً من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة وهو موافق للحديث الصحيح من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة وللحديث الصحيح من دل على خير فله مثل أجر فاعله وللحديث الصحيح ما من داع يدعو إلى هدى وما من داع يدعو إلى ضلالة والله أعلم .

« فبعث الله غراباً ، روى أنه لما قتله ندم فضمه إليه حتى أرواح وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله ، وكره أن يأتي به آدم عليه الصلاة والسلام فيحزنه : وتخير في أمره إذ كان أول ميت من بنى آدم عليه السلام ، فبعث الله تعالى غرابين قتل أحدهما الآخر وهو ينظر إليه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة ثم بحث عليه برجله حتى واره . وقيل : إن أحد الغرابين كان ميتاً .

« يبحث في الأرض ، يبحث في الأصل التفتيش عن الشيء مطلقاً ، أو في التراب ، والمراد به هنا الحفر .

« ليريه كيف يوارى سوء أخيه ، المراد بالسواة جسد الميت ، جسد هابيل ، وقيل : العورة لأنها تسوء ناظرها ، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها لأن سترها أكد .
« قال ، قال قابيل .

« يا ويلتنا ، كلمة جزع وتحسر . والويله - كالويل - المهلكه كأن المنحسر ينادى
هلاكه وموته وبطلب حضوره بعد تنزيله منزلة من ينادى ، ولا يكون طلب الموت
إلا من كان في حال أشد منه .

« أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، تعجب من عجزه عن كونه مثله لأنه
لم يهتد إلى ما اهتدى إليه مع كونه أشرف منه .
« فأواري سوءة أخى ، فاستر جثة أخى هابيل ١١ .

« فأصبح من النادمين ، وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره ،
وتلذذ الغراب فإنها إهانة ولذا لم يلهم من أول الأمر ما ألهم . واسوداد وجهه .
وقبرى أبويه - آدم وحواء - منه ، لا على الذنب إذ هو توبة .

هذه هي قصة ابني آدم ، قابيل وهابيل ، قصة القتل الأول على ظهر الأرض ؛
قصة أقبح جريمة قتل وقعت على الأرض ، لأن القاتل والمقتول أخوان شقيقان ،
ولأن سببها امرأة ، الطمع في جمال امرأة حسناء ، أبي قابيل على هابيل أن يتزوجها
وأراد أن يحتجزها لنفسه ، فكان ما كان من قتله لهابيل ، لينخلو له وجه الفتاة
الحسنة وينعم بها .

ويزيد من قبحها أنها أول القتل على الأرض ، ولذلك جعل الله على فاعلها وزر
كل جريمة قتل تحدث من بعده .

وهكذا حدث ما كانت الملائكة تخشاه من استخلاف آدم في الأرض حيث
قالوا :

« أتجمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ١١٢ . »

لما حملت حواء طاف بها إبليس

عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش ذلك وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره . (الترمذی) .

(قال ابن العربي) هذا تفسير قوله : جملا له شركاء فيما آتاهما ، وذلك تسميته عبد الحارث فلم يقدر الشيطان على أكثر من نسبة العبودية لغير الله وهو الملعون يطالب العبد بأعظم ما يقدر عليه معه وأدناه فلما يقس من حواء في غير هذا القدر اقتصر عليه وحواء أيضا لم تنعظ بما كان سبق بينها وبينه وتفر من أقواله وإشاراته وذلك كله من الله لتنفيذ المقادير ويتم التقدير . والشرك على أنواع شرك بالله وشرك في الأعمال وهو الرياء وشرك في الأسماء وهو موضع خفاء . وهذا كله على قول من يرى أن الآية نزلت في آدم وحواء ومن يرى أنها في جميع الآباء والأبناء أشار إلى ما كان ينسب العبودية في أبنائهم إلى الأصنام ...

ملك الموت يزور آدم

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة فقال أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال

فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم ففسدت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته . (الترمذى) .

« جاء ملك الموت ، إذ كمل عمره هذا لأن كل نبي لا تقبض نفسه حتى يخير . فقال لملك الموت بقي من عمري فقال ألم تبه لداود . قيل لو كان الرب تعالى هو المخاطب لآدم لما راجعه ولكن ملك الموت يمكن ذلك فيه . والذي عندي أن آدم جحد الهبة جحد ذاهل لا جحد متعسف . قوله فجحد آدم ونسى وخطىء فجحدت ذريته بيان أن الصفات موروثه وأخلاق الآباء مكتسبة للأبناء .

روى أن الله تعالى أبقى على آدم عمره وكمل لداود زيادته فضلا من الله ونعمة... وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه رحمة الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملائمتهم جلوس فقل السلام عليكم قالوا وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربى وكلتا يدي ربي يمين مباركك ثم بسطهما فإذا فيها آدم وذريته فقال أى رب ما هؤلاء فقال هؤلاء ذريتك فإذا أكسل إنسان مكتوب عمره بين عينيهِ فإذا فيهم رجل أضواءهم أو من أضوائهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة قال يارب زده في عمره قال ذلك الذى كتبت له قال أى رب فإنى قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها فكان آدم بعد لنفسه قال فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسى ففسدت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود . (الترمذى) .

وعندما أتم آدم عمره الذي كتب الله له وهو ألف عام ، جاءه ملك الموت مرة أخرى ، لا للزيارة ولكن ليقضى أمرا كان مفعولا .
وقبض ملك الموت روحه عليه السلام الطاهرة .
وذاق آدم طعم الموت الذي كتبه الله على عباده أجمعين .

روحا آدم وموسى تتجادلان

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال حاج موسى آدم فقال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم قال : قال آدم يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالك وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى أو قدره على قبل أن يخلقنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى . (البخارى) .

(وفى حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى قال يا رب أرنا أبانا الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه آدم عليه السلام فقال أنت أبونا قال نعم قال أنت الذى نفخ الله فيه من روحه وأسجد لك ملائكته قال نعم قال فما حملك على أن أخرجتنا من الجنة فقال له آدم من أنت قال موسى قال نبي بنى إسرائيل الذى كلمك الله من غير رسول من خلقه قال نعم قال اما وجدت ان ذلك كان فى كتاب الله قبل أن أخلق قال نعم قال فقيم تلومنى فى شيء سبق من الله فيه القضاء قيل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فحج آدم موسى) .

فإن قلت التقاؤهما فى أين كان أكان بالأرواح فقط أو بالأرواح والأجسام قلت قال القاسمى التقت أرواحهما فى السماء ، وقيل يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة وقال عياض يجوز أن يحمل على ظاهره وأنهما اجتمعا بأشخاصهما وقد ثبت فى حديث الاسراء انه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالانبياء عليهم الصلاة والسلام فى السماوات وفى بيت المقدس وصلى بهم فلا يبعد أن الله عز وجل أحياهم كما أحيا

الشهداء ، ويحتمل أن يكون جرى ذلك في حياة موسى عليه الصلاة والسلام لحديث
عمر أرنا أبانا... إلخ.

ومن الجنة ، المراد بالجنة التي أخرج منها آدم عليه الصلاة والسلام جنة الخلد
وجنة الفردوس التي هي دار الجزاء في الآخرة ، وهي كانت موجودة قبل آدم عليه
الصلاة والسلام وهو مذهب أهل الحق .

«كتبه الله على ، ليس المراد أنه الزمه إياه وأوجه عليه فلم يكن له في تناول
الشجرة كسب واختيار وإنما المعنى إن الله أثبت في أم الكتاب قبل كونه وحكم بأن
ذلك كائن لا محالة لعله السابق فهل يجوز أن يصدر عن خلاف علم الله فكيف تغفل
عن العلم السابق وتذكر الكسب الذي هو السبب وتلغى الأصل الذي هو القدر ؟
«فحج آدم موسى ، أي غلبه بالحجة وظهر عايشه بها ، وموسى عليه الصلاة
والسلام مال في لومه إلى الكسب وآدم عليه الصلاة والسلام مال إلى القدر وكلاهما
حق لا يبطل أحدهما صاحبه ، ومتى قضى للقدر على الكسب أخرج إلى مذهب
القدرية أو للكسب على القدر أخرج إلى مذهب الجبرية ، وإنما وقعت الغلبة لآدم
عليه الصلاة والسلام من وجهين ، أحدهما أنه ليس لمخلوق أن يلوم مخلوقا فيما قضى
عليه إلا أن يأذن الشرع هل يلومه فيكون الشرع هو اللازم . الثاني أن الفعل اجتمع
فيه القدر والكسب ، والتوبة تمحو أثر الكسب فلما تيب عليه لم يبق إلا القدر والقدر
لا يتوجه إليه لوم .

آدم يضحك ويبكي

عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله
بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدرى ثم
أطبقه ثم أخذ يدي ففرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئت إلى السماء الدنيا
قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل قال ملك أحد قال

نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم فقال: أرسل إليه قال نعم فلبثا فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلم يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل يساره بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قلت لجبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى . . (البخارى) .

« أسودة » جمع سواد وهو الشخص وقيل الجماعات .

« مرحباً » أى أصبت مرحباً وسهلاً .

« بالنبي الصالح والابن الصالح » أى القائم بحقوق الله وحقوق العباد .

« نسمة بنيه » هى الأنفس والمراد أرواح بنى آدم .

لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، آدم عليه السلام ، تارة يضحك وتارة يبكى إذا نظر قبل اليمين ورأى أرواح بنيه الذين سيدخلون الجنة ضحك ، وإذا نظر قبل شماله ورأى أرواح بنيه الذين سيدخلون النار بكى .

رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من آدم فى السماء الدنيا ليلة الإسراء .

وكم فى النبوة من عجب !!

فكل من يدخل الجنة على

صورة آدم

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . . . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن . . (البخارى) .

هذه قطعة طيبة كريمة من حديثه صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق ذكره كاملاً فى فصل « جمال حواء » من هذا الكتاب . وقد خصصت لها هذا الفصل لمزيد عليها وكريم ما فيها من بيان نبوى شريف . بل إن هذه الثمرة الكريمة لتصلح وحدها كتاباً

كبيراً جليلاً ، لما فيها من بشریات للناس كافة ، وكشوف عليّة للخلق أجمعين .
والأصلان العظيمان في هذه القطعة من الحديث الكريم هما :

١ - فكل من يدخل الجنة على صورة آدم .

٢ - فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن .

أما الأصل الأول وهو دخول أهل الجنة الجنة على صورة آدم فتفرع منه أمور .
الأمر الأول أن في ذلك بشرى للناس كافة . فمن الناس الأعور ، ومنهم الأعمى
ومنهم مقطوع اليدين ، ومقطوع الرجلين ، والأقرع ، والقصير ، والقيح ، والدنيء
الخلفة ، والمتقوس الظهر ، وعديم التناسق في جسمه ، ومنهم ومنهم .
فإذا كان يوم القيامة ، أعاد الله جميع الخلائق الصالحين على صورة آدم عليه
السلام يوم خلقه الله لأول مرة . وبذلك يتم تكريم بنى آدم الصالحين ، ويتم إعفاء
أهل البلاء من بلائهم الذي كانوا عليه في الدنيا ، ويتم تعويضهم عما فقدوا في
الحياة الأولى .

وإذا كان يوم القيامة كذلك رد الله جميع بنات آدم الصالحات إلى صورة أمهم
حواء التي خلقت عليها لأول مرة . وبذلك يتحقق لكل أنثى ما فاتها في الدنيا من
الجمال ، وفي ذلك ما فيه من المراء والمروض عما فاتهن في دنياهن .

الأمر الثاني أن الحياة في الجنة حياة خلود أبدى ، ولا يتناسب مع الخلود إلا
ما يحتمل مصارعة الزمان الطويل ، وهذا يتحقق في مثل تلك الأجسام الفارعة
الشامخة .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أول زمرة
يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على أشد كوكب
درى في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتشطون ولا يتفلون
أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين

أَخْلَقَهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ .
(مسلم) .

« ورشحهم المسك ، أى عرقهم .

« وبجامرهم الآلوة ، أى العود الهندى .

« أخلاقهم عل خلق رجل واحد ، وقد ذكر مسلم فى الكتاب اختلاف ابن أبى شيبه وأبى كريب فى ضبطه فإن ابن أبى شيبه يرويه بضم الخاء واللام وأبو كريب بفتح الخاء وإسكان اللام وكلاهما صحيح وقد اختلف فيه رواية صحيح البخارى ، ويرجح الضم بقوله فى الحديث الآخر لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد ، وقد يرجح الفتح بقوله صلى الله عليه وسلم فى تمام الحديث على صورة آدم أو على طوله .
« ولا يمتخطون ولا يتفلون ، هو بكسر الفاء وضمها حكاهما الجوهري وغيره
وفى رواية لا يصقون وفى رواية لا ييزقون وكله بمعنى .

وعن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قول الله يوم تدعو كل أناس بآمامهم قال يدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألؤ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتهم فيقول أبشروا السكل رجل منكم مثل هذا قال وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له فى جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم فيلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا قال فيأتهم فيقولون اللهم أخزه فيقول أبعذكُم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا . (الترمذى) .

والأمر الثالث أن كل ما فى الجنة ضخم فخم شاقق ، أشجارها ثمارها قصورها أنهارها على الغاية من الضخامة ، فلو دخل أهل الجنة الجنة على أجسامهم الهزيلة هذه التى هم عليها فى الدنيا ، ما صلحوا للحياة فيها . وكانوا كالتل أو كالندر بالنسبة للمخلوقات التى فى الجنة ، ومن أجل ذلك يمد الله فى أجسامهم ليتم الانسجام بين الجنة وبين

سكانها من الصالحين . ومن أجل ذلك خلق الله آدم خلقا ضخما ليتسق مع ما في الجنة التي خلق فيها .

الامر الثالث أنه ما من إنسان ، ذكر اكان أو أنثى الا وهو يتمنى في قرارة نفسه جسما أقوى من جسمه ، وأجل منه ، وأوفى بشرائط الحسن مما هو عليه . ويعيش الإنسان ويتألم في حياته لعدم تحقق ما يتمناه في الدنيا . فإذا كانت الآخرة . أعطى الله لكل إنسان صالح ما يتمنى ، وآناه جسما على أحسن صورة يتصورها إنسان . وأعطي كل أنثى جسما على أجل صورة تتمناها امرأة .

وبذلك يرضى أهل الجنة عن أنفسهم ، لأنهم أعطوا فوق ما يتمنون .
الامر الرابع أن ما يتخيله الإنسان من آماني ، وما يشتهي من أحلام لذيذة ، لها أصل في تكوينه ورثته عن أبيه آدم وأمه حواء ، ذلك أنهما خلقا في الجنة وعاشا حينما من الدهر في الجنة ، واستمتعا بما فيها ، وبقيت صور مناظرها في رموسهما ، وتسلسلت هذه الذكريات في ذريتهما . من أجل ذلك يحقق الله للإنسان هذه الآماني يوم القيامة ، ويدخله الجنة التي كان فيها أبواه ليستمتع بما كان يتخيل في الدنيا .
وأما الأصل الثاني فهو قوله صلى الله عليه وسلم « فلم يرزل الخلق ينقص بعد حتى الآن » ، وهذا أمر لا مرأ فيه ، إذ المشاهد أن الإنسان يضعف تدريجيا ، وأن كل جيل ينقص عن سابقه . ولا يمنع هذا من وجود الشواذ فالشاذ لا حكم له ، وإنما العموم أن النقص مستمر على التوالي .

ابليس يولول

يعتبر إبليس عليه اللعنة أشقى مخلوق فيما وصل إلى علمنا نحن البشر عن طريق الوحي السماوى . ذلك بأنه أصل الشر في الأرض ، وبداية الباطل في الناس . فلو أنه لم يسلك الطريق الذى سلكه ، ما كان هناك طرد له من الجنة ، وما نزلت عليه لعنة الله والملائق أجمعين .

وعلى ذلك يعتبر إبليس هو المستول الأول عن كل معصية تقع من الإنسان ، وهو يحمل وزرها ويعاقب بها ، لا ينقص ذلك من وزر فاعلمها من البشر .
وهو بذلك إمام أهل النار ، وأكبر أهل النار عذاباً ، لأنه هو الذى سن لهم المعصيان وزينه لهم .

وإبليس عليه اللعنة يجعل نفسه إلها من دون الله ، ويدعو بنى آدم إلى عبادته من دون الله ، وذلك بالرغم من علمه الأكيد أنه لا إله إلا الله . وأنه كاذب مضلل فى دعواه التى يزيناها لبنى آدم .

قال تعالى : أَعْبُدُوا إِلَٰهَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . (يس : ٦٠ : ٦٢) .

• ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، العهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد به ههنا ما كان منه تعالى على السنة الرسل عليهم السلام من الأوامر والنواهي التى من جعلتها قوله تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) الآية ، وقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وغيرهما من الآيات الواردة فى هذا المعنى .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم فى عالم الذر إذ قال سبحانه لهم (أستبرئكم) .
وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الأمرة بعبادة الله تعالى الزاجرة عن عبادة غيره عز وجل .

والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم وزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل .
• إنه لكم عدو مبين ، أى ظاهر العداوة . وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لأدم عليه السلام .

« وأن اعبدوني ، ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي .
« هذا صراط مستقيم ، التشكير للبالغة والتعظيم أى هذا صراط بليغ في استقامته
جامع لسكل ما يجب أن يكون عليه ، واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف .
« ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ، الجبل الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبها
بالجبل في العظم . وفسره بعضهم بالجماعة وبعض بالامة . والمعنى ولقد أضل الشيطان
منكم يا بنى آدم أما كثيرا .

« أفلم تكونوا تعقلون ، أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا
عليه لئلا يحيق بكم العذاب الآليم ١٩

ورغم ذلك المبلغ الذى بلغه الشيطان من الناس ، وما وصل إليه من اضلال
الاغلبية العظمى منهم ، فإنه حقير ذليل يبكى ويولول ويصغر في نفسه كلما رأى
شيئا من بنى آدم يذكره بجريمته الأولى جريمة استكباره أن يسجد لآدم عليه السلام .
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ابن آدم
السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله (وفي رواية أبي كريب)
يا ويل امرئ ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي
النار . (مسلم) .

« إذا قرأ ابن آدم السجدة ، معناه آية السجدة « يا ويله ، هو من آداب الكلام
وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغير ما فيه سوء واقتضت الحكاية رجوع الضمير
إلى المتكلم صرف الحاكى الضمير عن نفسه تصاوفا عن صورة إضافة السوء إلى نفسه
إن إبليس يبكى كلما رأى ابن آدم يسجد لآية من آيات السجود في كتاب الله .
لأن ذلك يحز في نفسه . كيف أن هذا الأدنى يفعل ما يدخله الجنة بينما هو يابى
ويستكبر فتجب له النار ١١٩ .

يا آدم ... أخرج بعث النار

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى يا آدم فيقول ليبيك وسعديك والخير في يديك فيقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسمة وتسمة وتسعين فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قالوا يا رسول الله وأينا ذلك الواحد قال أبشروا فإن منكم رجل ومن ياجوج وما جوج ألف ثم قال والذي نفسي بيده إنى أرجو أن تكونوا ربج أهل الجنة فكبرنا فقال أرجئوا أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال أرجئوا أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال ما أنتم في الناس إلا كالشجرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشجرة بيضاء في جلد ثور أسود . (البخارى) .

« وسعديك » أى ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة وإسعاداً بعد إسعاد .

« والخير في يديك » أى ليس لأحد معك فيه شركة .

« أخرج » أمر من الإخراج .

« بعث النار » حرها وهو إخبار أن ذلك العدد من ولده يصيرون إلى النار .

« فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها » أى فعند قول الله تعالى عن وجل لأدم عليه السلام أخرج بعث النار يشيب الصغير من الهول والشدة . (فإن قلت) يوم القيامة ليس فيه حل ولا وضع (قلت) اختلفوا في ذلك الوقت فقيل هو عند زلزلة الساعة قبل خروجهم من الدنيا فهو حقيقة وقيل هو مجاز عن الهول والشدة يعنى لو تصورت الحوامل هنالك لوضعن حملهن كما تقول العرب أصابنا أمر يشيب منه الولدان .

« فكبرنا » أى عظمنا ذلك وقلنا الله أكبر للسرور بهذه البشارة العظيمة ، وإنما

ذكر الرج أولاً ثم النصف لأنه أوقع في النفس وأبلغ في الإكرام فإن تكرار الاعطاء مرة بعد أخرى دال على الملاحظة والاعتناء به . ومنه أيضاً حلهم على تجديد شكر الله وتكبيره وحمده على كثرة نعمه .

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك قال يقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك حين يثيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قال فاشدد ذلك عليهم قالوا يا رسول الله أينما ذلك الرجل فقال أبشروا فإن من ياجوج وماجوج ألفاً ومنكم رجل قال ثم قال والذي نفسي بيده إنى لأطعم أن تكونوا أربع أهل الجنة فحمدنا الله وكبرنا ثم قال والذي نفسي بيده إنى لأطعم أن تكونوا ثلاث أهل الجنة فحمدنا الله وكبرنا ثم قال والذي نفسي بيده إنى لأطعم أن تكونوا شطر أهل الجنة إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرقة في ذراع الحمار . (مسلم) .

وهو نفس حديث البخارى السابق روايته وشرحه ، ولكنه يختلف عنه قليلاً .
« أخرج بعث النار » البعث هنا بمعنى المبعوث الموجه إليها ومعناه ميز أهل النار من غيرهم .

« كالرقة في ذراع الحمار » الدائرة في ذراعه .

وعن عمران بن حصين قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بهاتين الآيتين يا أيها الناس اتقوا ربكم إن دلالة الساعة شيء عظيم إلى قوله عذاب الله شديد فلما سمع ذلك أصحابه حثوا الماطى وعرفوا أنه عند قول يقوله فقال هل تدرون أى يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم

ينادى الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول يا آدم ابعث بعث النار فيقول يا رب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحدة في الجنة فنبس القوم حتى ما أبدوا بضحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بأصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده انكم لمع خلقين ما كانتا مع شيء الا كثرتاه يا جوج وما جوج ومن مات من بنى آدم وبني إبليس قال فسرى عن القوم بعض الذى يحدون فقال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم في الناس الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (الترمذى) .

« نبس ، أى سكت .

« الرقة ، لون يخاف لونا يكون فيه والشامة نحوه .

« تفاوتوا ، أى أبطأوا في السير حتى سقطهم غيرهم .

« حثوا المظلى ، أى جاءوا بفعل أو قول اقتضى سرعتها في السير .

« ابعث بعث النار ، أى ميز من ذريتك أهل النار من أهل الجنة على التمييز إذ قد ميزوا قبل خلقهم بالعلم والتقدير ، فإن الله علم أهل الجنة من أهل النار قبل خلقهم وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل القبلة ، ثم كتبهم حين خالق القلم وهذا لا يؤمن به إلا أهل السنة ، ثم مسح ظهر آدم - بين خلقه وقبض منه قبضتين كما تقدم فجعل قبضة للجنة وقبضة للنار .

هذا هو الحديث الصحيح العظيم ، كما جاء في البخارى ، وكما جاء في مسلم ، وكما جاء في الترمذى . وهو بين موقفا خطيرا يفتنه آدم من ذريته يوم القيامة . يوم يناديه الله عز وجل يا آدم أخرج بعث النار ، فيقول يا رب وما بعث النار ، فيقول الله من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحدة في الجنة . فذاك حين يشيب الصغر ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

موقف خطير حقاً ، ومقام لآدم عليه السلام أخطر وأعظم .
قم يا آدم وميز من ذريتك أهل النار الذين سبغتهم إليها .
من كل ألف ٩٩٩ ، للنار و ١ ، للجنة .
ولذلك فرح الصحابة من هول النبأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول
الله أينا ذلك الرجل ٩ ،
واحد في الألف ١١ .
أينا يكون ذلك الواحد ٩٢ .

آدم يذكر خطيئته

في مقام الشفاعة

عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله المؤمنين يوم القيامة
كذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا حتى يرضينا من مكاننا هذا فيأتون آدم
فيقولون يا آدم أما ترى الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك
أسماء كل شيء شفع لنا إلى ربنا حتى يرضينا من مكاننا هذا فيقول لست هناك
ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله
إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب
ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتون إبراهيم فيقول لست هناكم ويذكر
لهم خطاياهم التي أصابها ولكن اتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكله تكليماً
فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن
اتوا عيسى عبداً لله ورسوله وكتبته وروحه فيأتون عيسى فيقول لست هناكم
ولكن اتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر
فيأتون فأنطلق فاستأذن على ربي فيؤذن لي عليه فإذا رأيته ربي وقعت له
ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي ارفع محمداً وقل يسمع وسل

تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد عليّتها ثم أشفع فيحدّ لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد وقلّ يسمع وسلّ تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد عليّتها ربى ثم أشفع فيحدّ لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد وقلّ يسمع وسلّ تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد عليّتها ثم أشفع فيحدّ لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فأقول يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود قال النبى صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن من الخير ذرة . (البخارى) .

« يجمع الله المؤمنين ، يتناول كل المؤمنين من الأمم الماضية .

« كذلك ، أى مثل الجمع الذى نحن عليه .

« لو استشفعنا ، كله لو للتمنى .

« يريحنا ، من الإراحة .

« من مكاننا هذا ، أى من الموقف بأن يحاسبوا ويخلصوا من حر الشمس والغموم

والسكروب وسائر الأهوال بما لا يطيقون ولا يحملون .

« أما ترى الناس ، أى فيما هم فيه ؟ .

« شفّع ، أمر من التشفّع وهو قبول الشفاعة .

« لست هناك ، أى ليس لى هذه المرتبة والمنزلة .

« خطيئته التى أصاب ، هى أكل الشجرة .

« فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، مفهومه أن آدم عليه السلام ليس

برسول وأجاب الكرمانى بأنه لم يكن للأرض أهل وقت آدم . فإن قيل لما تناسل

منه ولده وجب أن يكون رسولا إليهم قيل لما أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض
عليه الله أحكام دينه وما يلزمه من طاعة ربه ولما حدث ولده بعده حملهم على دينه
وما هو عليه من شريعة ربه كما أن الواحد منا إذا ولد له يحمّله على سنته وطريقته
ولا يستحق بذلك أن يسمى رسولا وإنما سمي نوح رسولا لأنه بعث إلى قوم كفار
ليدعهم إلى الإيمان .

« ويذكر خطيئته التي أصاب ، وهي دعوته (رب لا تذر على الأرض من
الكافرين دياراً) .

« خطايا ، وخطايا إبراهيم عليه السلام كذباته الثلاث (إني سقيم) و (بل
فضله كبير) و (إنها أختي) أي سارة عليها السلام .
« وكلته ، لوجوده بمجرد قول كن .

« وروحه ، انفخ الروح في مريم عليها السلام .
« فبدعني ، أي يتركني .

« ارفع ، أي رأسك يا محمد .

« واشفع تشفع ، أي تقبل شفاعتك .

« فيحد لي حداً ، أي يدين لي قرماً مخصوصين للتخليص وذلك إما بتعيين ذواتهم
وإما ببيان صفاتهم .

« إلا من حبسه القرآن ، يعني من حكم الله في القرآن بخلوده وهم الكفار قال
الله تعالى (إن الله لا ينفق أن يشرك به) .

قيل أول الحديث يشعر بأن هذه الشفاعة في العرصات لخلاص جميع أهل
الموقف من أهواله وآخره يدل على أنها للتخليص من النار وأجيب بأن هذه شفاعات
متعددة فالأولى لأهوال الموقف .

« من الخير ، من الإيمان .

« ما يزن ، ما يعدل .

خاتمة

في مبحثين

المبحث الأول - هل كان إبليس من الجن
أو من الملائكة ؟

- العلماء فريقان يختصمان في أمر إبليس .
فريق يذهب إلى أنه كان من الجن ويحتج بالآتي :
- ١ - قوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .
 - ٢ - صدور المعصية عن إبليس والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم .
 - ٣ - استكباره وإبائه السجود والملائكة لا تستكبر ولا تأتي الطاعة .
- وفريق يذهب إلى أنه كان من الملائكة ويحتج بالآتي :
- ١ - أنه استثنى من بين الملائكة ، ومعنى هذا أنه كان ملاكا .
 - ٢ - أن الذي دفعه إلى السكبر علو مكانه بين الملائكة فوقع في نفسه أنه خير منهم ومن آدم .
 - ٣ - أن كونه من الملائكة وعصى يستلزم عقابه عقابا شديدا لأنه أتى شيئا يناقض كل المناقضة لطبيعة الملائكة ، أما كونه من الجن وعصى فلا يستلزم كل هذه العقوبة واللعنة التي نزلت عليه ، لأن صدور الشيء من معدنه لا يستغرب .
- هذه هي حجج الفريقين ، ويبدو لي أن الحق مع الفريق الثاني القائل بأن إبليس كان من الملائكة وذلك لعدة أمور :
- ١ - أن جميع آيات القرآن ناطقة باستثنائه من بين الملائكة أجمعين ، وهذا يؤيد كونه من الملائكة .

٢ - أما قوله سبحانه وكان من الجن ، فقد أولها بعضهم بأنها بمعنى كان من الملائكة المقربين وأن الجن هنا بمعنى الملائكة الذين لا يراهم غيرهم من الملائكة لشدة قربهم من الله . أو بمعنى صار من الجن بعد معصيته .

٣ - أما احتجاجهم بأن إبليس خالق من نار والملائكة خالق من نور ، فهذا ليس بحجة لأن النور من النار والنار أصل للنور .

٤ - وأما صدور المعصية عنه وهذا يناق طبيعة الملائكة فليس بحجة كذلك ، لأنه وإن كانت الطاعة المطلقة أصل في صفات الملائكة إلا أن ذلك لا يمنع أن تصدر المعصية عن أحدهم إذا أراد الله ذلك . كما أن توالد البشر عن طريق الذكر والأنثى أصل في الإنسان ، ولكن ذلك لم يمنع من خرق هذه القاعدة في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب .

٥ - وأما استكباره وإبائه السجود فلا غرابة فيه بعد أن قام بنفسه أنه خير من آدم عليه السلام ، عقب ظنه أنه خير من الملائكة .
تلك بعض أدلة القائلين بأنه كان من الجن والرد عليها .

واعتقادي إن إبليس كان ملاكاً ، بل كان من كبار الملائكة ، بل لا يبعد أنه كان من أقرب المقربين منهم ، ومن هنا تلبني عظيمة القصة وكبر المعصية .

والذي يجعلني أذهب إلى كونه من أئمة الملائكة قوله : أنا خير منه ، فهذه الكلمة تدل على شدة إحساسه بخيريته ، وأنه يعتقد اعتقاداً لازماً أنه خير من الملائكة فكيف لا يكون خيراً من مخلوق من طين ١٩ . وقد أتاه ذلك الشعور بما كان فيه من قرب من الله ، وما يستتبع ذلك من علم بالله ، وإحاطة بأسرار الملوكوت ، وقد ظن تبعاً لذلك أنه أوتي ما لم يؤته أحد من الخلق .

أن الذي يلائم جلال الموقف ويلتئم كل هذه اللامتن والمصائب التي حبت على إبليس بعد معصيته ، أن يكون مقامه كبيراً لا صغيراً ، لأن التكبير إذا أخطأ قامت الدنيا وقعدت ، أما الصغير إذا أخطأ فلا أحد يلتفت إليه ، والمشاهد أن الله غضب

غضباً شديداً على إبليس عندما عصى وأبى ، وألغته لعنة أبديته ، وطرده من الجنة ، وأخرجه من صورة الملائكة وفعل به وفعل ، وذلك كله المعصية واحدة ، واحدة ليس إلا ، ورغم أن الله من صفاته الرحمة والعفو والمغفرة ، وأنه دائم المغفرة ودائم الرحمة ، فكونه سبحانه يعاقب إبليس بكل هذه العقوبات التي تسكنى واحدة منها لعقوبة أمة بأكملها ، يدل ذلك دلالة واضحة على أن إبليس كان مقرباً جداً ، وكان ملاكاً عظيماً جداً ، فكان من أقبح القبح أن تصدر عنه مثل هذه المعصية في مثل هذا المقام .

أن الحوار الذي قام بين الله سبحانه وبين إبليس عليه اللعنة ، كان حواراً مباشراً وبغير حجاب وبغير واسطة . وذلك المقام لا ينبغي للجن لأن الجن في مرتبة دون ذلك . ولكنه ينبغي للملائكة وهم الذين تسمع رتبهم بمخاطبتهم مباشرة بل أن من الملائكة من لا يسمع مقامه بالخطاب المباشر ، ولا يعلم بالشئ إلا عن طريق كبار الملائكة . فكون إبليس يحاور الله تعالى ويحاوره سبحانه هذا الحوار الطويل ، يدل دلالة قوية على أنه كان ملاكاً كبيراً ، وكان يعلم من الله ما لا يعلم كثير سواه من الملائكة ، حتى أنه اعتقد أن من حقه أن يناقش الله الحساب ويجادله في قضائه الذي قضى .

أن أسلوب الحوار أسلوب الشخص العليم بالسياسة العليا للكون ، المدرك لصفات الله ، المقر بعظمته وجبروته ، وأنه الفعال لما يريد . انظر إلى قول اللعين « رب بما أغويتني » وقوله « فبعزتك » وقوله « أنظرني » كل ذلك يحمل في طياته ما يدل على أنه يعلم علم اليقين أن الأمر كله بيد الله ، وأن الله عزيز لا يقدر أحد على دفع ما يريد ، وأن الله هو الذي يسأل وتطلب منه المطالب لا أحد سواه سبحانه . وهذه معلومات تدل على قدم اللعين في العلم .

أن ما عليه إبليس من اتقان لصنعة في الدنيا ، صنعة الإضلال والإفساد والتزيين ، يدل على أنه عليم غاية العلم ، لأن إضلال بني آدم أجمعين شئ ليس بالهين

فكون إبليس يفعل ذلك كله ويحسن هذه الصناعة وترث ذريته عنه ذلك ، أدل الدلائل على أنه كان صاحب عقل كبير ، وأن هذا العقل غفل ملاك كبير تحول إلى الشر عندما أخرجه الله من هيئة الملائكة إلى هيئة الشياطين .

أن إبليس مسخ من ملك إلى شيطان ، ليكون أصلاً لهذا الجنس المسمى بالجن فيما بعد ، وأن الملاحظ أن من ذريته المؤمن والكافر ، كما أن من ذرية آدم المؤمن والكافر كذلك ، وأن قصة اختبار بني آدم تستلزم رجوع ما يدفع إلى الشر ويزين الشر ويوسوس بالشر ، وهذا هو عمل إبليس وذريته في الإنسان .
ذلك هو المبحث الأول من الخاتمة ، وفيه بعض ما أرى من شأن إبليس وهل كان من الجن أو من الملائكة ، والله أعلم بالحق وهو يهدي السبيل .

المبحث الثاني

هل الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد
أو جنة في الأرض ؟

ذهب فريق من العلماء إلى أن الجنة التي خلق فيها آدم وأخرج منها هي جنة في الأرض وأتوا على ذلك بعشرات الأدلة وقالوا بما يكاد يلزم الإنسان بالاعتقاد بأن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة كانت في الكرة الأرضية .

والحق الذي أعتقده ، ويميل إليه قلبي ، وذهبت إليه في هذا الكتاب ، والذي عندي من الأدلة عليه ما أسوقه إن شاء الله ، والذي يقول به كثير من أهل الحق ، أن الجنة التي أخرج منها آدم وحواء وإبليس ، هي جنة المأوى ، هي جنة الخلد التي وعد المتقون ، وأنها كانت قبل خلق آدم وحواء ، وأنها عند الله ، وأن القصة جرت فيها ، والإخراج كان منها ، وأنها هي الوعد الذي يدخره الله لمن أطاعه من بني آدم وبني الجن ، وأن القصة بذلك تصبح طبيعية بدنية ، وأن ذلك ما يشير إليه الكتاب والسنة وصحيح الآثار .

هذا وقد راجعت جميع النصوص الخاصة بهذا الكتاب ، في هذا الموضوع بالذات ، وأمسكت بالآيات والأحاديث ، آية آية ، وحديثا حديثا ، بل كلمة كلمة ، وجعلت أتأملها وأفكر فيها ، واستنبط من شروحها ومعانيها ، فتبين لي تماما أن الجنة هي جنة الخلد وليست جنة كانت في الأرض ، ووجدت الأمر يضي سبلا مفهوما على هذا الاعتبار ، ولاحظت أن النصوص تزداد إشراقا ، ونورا إذا ذهبنا بها ذلك للمذهب .

هذا وإليك الأدلة :

١ - اعتبر القرآن الكريم خروج آدم وحواء من الجنة ، مصيبة وأى مصيبة نزلت بهما ، وأنهما بذلك فقدنا نعيمًا ياله من نعيم ، وعبر عن ذلك بقوله : فأخرجهما مما كانا فيه ، وأبهم ما كانا فيه للإشعار بعظمة ما كانا فيه ، فهل خروج آدم وزوجه من حديقة هي مجرد حديقة في الأرض ، إلى كل مكان من الأرض ، يعتبر نكبة ومصيبة وخسران ؟ الأمر على العكس من ذلك كله ، فعندى أن الخروج من حديقة إلى كل الأرض يعتبر رحمة ونعمة من الله ، لأنه خروج من مكان محدود إلى مكان لا محدود ، من شيء مألوف إلى شيء متغير ، من السجن إلى الحرية . فلو أنك جئت بإنسان ووضعته في أجمل حديقة في الدنيا وحرمت عليه الخروج منها ، لكره ذلك ورغب في الخروج منها إلى حيث يجد حرية الحركة وحرية الانتقال والعمل . وهذا الدليل وحده يكفي لانهيار حجة القائلين بأنها كانت جنة في الدنيا . ولست أدري كيف غاب عنهم مثل هذا الأمر الساطع ؟ . وعلى العكس من ذلك إذا ذهبنا إلى أن الجنة كانت هي جنة الخلد ، فإن المصيبة حينئذ تصبح حقيقة ، والداهية تصبح دهياء ، والخسران على هذا تماما كاملا . فالخروج من جنة عرضها السماوات والأرض إلى أرض مهما بلغت اتساعها فلن يبلغ شيئا من اتساع الجنة ، هو الخروج من الحرية إلى السجن حقا ، ومن السعة إلى الضيق صدقا ، ومن الرحمة إلى البلاء . والخروج من حياة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وما لا خطر على قلب بشر ، إلى حياة كلها

آلام ومكاره ولا يكاد يجد الإنسان فيها لقمة العيش إلا بشق الأنفس ، لهو الخروج من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى المرض ، ومن الهناء إلى البلاء . والخروج من رضوان الله ورحمة الله إلى دار الشقاء والبلاء هو البلاء المبين والداء الدفين والأمر الذى يعتبر عقوبة وهبوطا كما سماه الكتاب . أرايت إذا ، كيف أن الأمر يبدو جليا إذا قلنا بأنها جنة الخلد ويبدو ملتويا خفيا غير طبعى إذا قلنا أنها جنة فى الأرض ؟

٢- أن المعلوم أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم أجمعين ، فلو كان آدم فى جنة فى الأرض ، فهل هذه الأرض الصغيرة تصلح لاجتماع الملائكة أجمعين وسجودهم ، ولمثل هذا الحدث العظيم ؟ كلا ثم كلا ، فإن الأرض أعجز عن ذلك ، ولا تتحمل مثل ذلك ، وقد ثبت أن جبريل عليه السلام وحده ، حين ظهر للنبي صلى الله عليه وسلم سد ما بين الأفق مع أنه لم ينشر من أجنحته إلا قليلا ؛ فكيف إذا اجتمع الملائكة أجمعون كبارهم وصغارهم ، وهم الذين أطت منهم السماء وحق لها أن تئط ، كيف إذا اجتمعوا هؤلاء جميعاً وهم الذين يملأون السماوات والجنة والنار وغير ذلك مما لا يعلم إلا الله ، كيف إذا اجتمعوا فى الكرة الأرضية برغم تفاهتها بالنسبة للكون ، ولكن فى مكان صغير من هذه الكرة الأرضية ، فى رقعة محدودة هى الحديقة التى كانت فى الأرض على ما يزعم الزاهبون إلى هذا الرأى ١١٩ .

ألا يبدو الأمر فى هذه الحالة مستحيلا وغير ممكن وغير طبعى ؟ نعم والطبعى والمعقول والذى هو حق أن يكون ذلك الحدث العظيم فى الجنة التى هى جنة الخلد ، لأنها بلغت من السعة أن سقفها عرش الرحمن ، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما يضع أحدنا أصبعه فى اليم فلتنظر بهم يرجع ، وأنها بلغت من السعة أن الله يدخل أهل الجنة فيها ويعطى كلا منهم ما يشاء ويزيده ما شاء سبحانه من فضله ويبقى فى الجنة بعد ذلك مساحات ومساحات فيخلق الله لها خلقا ويدخلهم إياها من فضله . ذلك هو المكان الذى يصلح لذلك الحدث العظيم . ويسع مثل ذلك الأمر الكبير ، ولئن اجتمع الملائكة أجمعون فيها وأوقعوا السجود لوسعتهم ووسعت مثلهم معهم . ثم الأمر

الطبيعى والبديهي أن يسجد الملائكة في مكانهم ومسكنهم الذى هم فيه دائماً وهو السماء لا الأرض ، وأن ينقل المسجود له وهو فرد واحد إلى مكان الساجدين وهم ما لا يحصى عدداً ولا يحاط به علماً ، وأن يقع ذلك فى الملائكة الأعلى لافى هذه الأرض التى لم يكن فيها غير الحيوانات والنباتات . أرايت بعد هذا كذلك كيف أن الجنة التى وقع فيها السجود كانت جنة المأوى لا حديقة فى الأرض ؟ . واست أدري كيف غاب مثل هذا عن الذين ذهبوا إلى غير هذا الرأى ؟ .

٣ - أن إبليس أخرج منها عقاباً وإهانة ، وأنه اعتبر خروجه منها مصيبة نزلت به استوجبت أن ينتقم من آدم وزوجه وفريته ، وأنه فقد لذلك حقداً شديداً على آدم ، وظل يتحين الفرصة ليخرجه منها كما كان هو سبب خروجه منها ، فهل تصلح هذه الحديقة فى الأرض لأن يحزن إبليس أشد الحزن على خروجه منها ويتألم أشد الألم لفراقه عنها ، ويعمل كل العمل للانتقام من آدم بسببها ؟ . الحق أن لا ، والحق أنها إن كانت هذه التى فى الأرض ، فإن خروج إبليس منها تكريم لا تعذيب ، ورحمة لا لعنة ، وسعة لا ضيق ، وخير لا شر . لأن إبليس يرحب أن يخرج من ذلك السجن إلى سعة الأرض ، ثم ماذا يستفيد إبليس من حديقة لا تنفعه فى شيء ولا تضره فى شيء إن هو خرج منها ؟ . ولكن الحق أن خروجه من جنة الخلد هو الخروج ، لأن معنى ذلك أنه لم يعد أهلاً للبقاء فى دار الفضل والقرب من الله ، بل أصبح من أهل الطرد والبعد ، فليخرج إذاً منها إلى الأرض البعيدة الدنيئة . ثم إنها إن كانت دار الخلد وجنة النعيم لكانت هى التى تستحق أن يعمل إبليس ليسكيد لآدم بإخراجه منها ، وهذا هو الانتقام الذى يسعى إليه إبليس لبشنى صدره وغله ، لأنه بذلك سيخرج آدم من سعادة إلى شقاء ، ونعيم إلى آلام ، ومن سعة إلى ضيق أما إذا كان الأمر أن يخرج من جنة الأرض فقد أسدى بذلك جميلاً إلى آدم ، وليس إبليس بذلك الهين الساذج ، بل هو عدو مبين مكين . أرايت إذاً أن الجنة هى جنة الخلد لا جنة فى الأرض ؟ .

هذا وكان فى رأسى أدلة أخرى غير ذلك ؛ نسيتهما الآن ولعل إبليس اللعين هو الذى أنساها .

فهرست

صفحة

٣	الامداد
٥	مقدمة
٧	قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة
٩	خلق السماوات والأرض
١١	متى خلق آدم ؟
١٣	إني جاعل في الأرض خليفة
١٥	الملا الأعلى يختصم
١٨	خلق جسد آدم
٢٣	إبليس يطوف بالجسد
٢٤	بين الروح والجسد
٢٤	ونفخت فيه من روحي
٢٦	الملائكة تحي آدم
٢٧	ميثاق الذر
٢٢	وعلم آدم الأسماء كلها
٢٣	أنبثوني بأسماء هؤلاء
٢٤	يا آدم أنبثهم بأسمائهم
٢٥	اسجدوا لآدم
٢٨	إلا إبليس أبى

صفحة	
٢٩	أنا خير منه ١١
٤٢	لم أكن لأسجد لبشر ١٩
٤٦	كيف أسجد لمخلوق ١٩
٤٦	لأهلكهم ١١
٤٩	فبعتك .. لأغوينهم ١
٥٣	أخرج منها .
٥٤	أنا خير منه
٥٦	الملاك العظيم ينقلب إلى شيطان رجيم ١١
٥٩	وخلق منها زوجها
٦٢	جمال حواء .
٦٥	اسكن أنت وزوجك الجنة .
٦٧	ولا تقربا هذه الشجرة
٦٨	إن هذا عدو لك ولزوجك .
٧١	ففسى ولم نجد له عزما .
٧٢	فوسوس لهما الشيطان
٧٥	فلما ذاقا الشجرة .
٧٧	بدت لهما سوءاتهما .
٧٨	وطافقا ينصفان عليهما من ورق الجنة
٧٩	وعصى آدم ربه فغوى
٨١	فغوى
٨٣	وناداهما ربهما

صفحة	
٨٤	ربنا ظلمنا أنفسنا
٨٧	أهبطوا منها جميعاً
٩١	فأخرجهم بما كانوا فيه
٩٤	عرش إبليس
٩٦	ليبلوكم أيكم أحسن عملاً
٩٨	ابني آدم
١٠٣	لما حملت حواء طاف بها إبليس
١٠٣	ملك الموت يزور آدم
١٠٥	روحا آدم وموسى تتجادلان
١٠٦	آدم يضحك ويبكي
١٠٧	فكل من يدخل الجنة على صورة آدم
١١٠	إبليس يولول
١١٣	يا آدم أخرج بعث النار
١١٦	آدم يذكر خطيئته في مقام الشفاعة
١١٩	هل كان إبليس من الجن أو من الملائكة ؟
١٢٢	هل الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد أو جنة في الأرض ؟

ماذا في هذا الكتاب !!

فيه بدائع الانسان الاول ...

الذي تملأت فيه ... عجائب التجلي الالهي
« ونفحت فيه من روحي »...

فيه اسرار... والنوار... واغوار... وانهار... وبحار...
قصة آدم... وحواء...

التي هي قصتك... انت... فما انت الا صورة
مكررة... من ابويك !!!



To: www.al-mostafa.com